روايات إسلامية

١١

على أبواب خيبر

الدكتور نجيب الكيلاني

رقم الإيداع : ٢٤٨٤٠/ ٢٠٠٦

١

صفية ابنة «حيى» بن أخطب تعد من أشهر نساء اليهود على الإطلاق . فأبوها «حيى» بن أخطب رجل مرموق المكانة– نابه الشأن ، صاحب رأى وكلمة مطاعة بين بنى قومه من اليهود ، وعلى صلات وثيقة مع رجالات القبائل العربية فى طول الجزيرة وعرضها وزوجها كنانة بن الربيع سيد قومه ، وملك– خيبر– كثير المال ، قوى الجانب ، تحميه السيوف والدنانير والتجارة الواسعة والديانة العتيقة ، وصفية فى نفس الوقت على جانب كبير من الجمال والفطنة والأريحية ، فهى تبش عند اللقاء ، وتجود للفقراء ، وتواسى المحزونين ، بل إنها تحظى أكثر من زوجها بحب شعب اليهود بناته ورجاله ، ولم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن كبريات الأمور التى تجرى سواء فى مجال السياسة أو الدين أو الحرب أو المال ..

وامرأة هذا شأنها لم تغلق فكرها ، أو تغمض عينيها عما يجرى بشأن النبى العربى الجديد ، كانت تتقصى أنباءه وتلح فى طلبها ، وتتلقى ما يصل إليها من آيات القرآن تلقى الشغوف ذات الفضول الزائد .. وترمق بعين يقظة صدى الدعوة الإسلامية فى مجتمعات اليهود الصاخبة .. وتابعت تطورات الموقف مرحلة مرحلة .. فى البداية كان اليهود يناقشون أمر ظهور نبى جديد ، وموقفهم من ذلك النبى ، الذى بشرت به كتبهم على رغم ما فيها من أكاذيب وتعاليم موضوعة لا تمت إلى التوراة بصلة .. كانوا يأملون أن ينحاز النبى الجديد إلى صفهم ، وينضوى تحت لوائهم ، فهم

أسبق فى لقاء السماء ، وأقدم عهدا بكتبها ، وأطول تاريخا فى ممارستها كما يزعمون .

وقالت صفية لزوجها كنانة بن الربيع : « النبى الجديد يؤمن بموسى ..»

قال ساخرا : « ويؤمن بعيسى والأنبياء من قبله ..»

– « هذه بداية طيبة يا كنانة ..»

– « بل أسوأ بداية ..»

– « كيف .. ألن يكون بيننا وبينه لقاء؟ ألا يؤمن بالله وكتبه ورسله ..»

– « نحن لا نؤمن بغير أنبياء بنى إسرائيل وكتبهم » .

ثم أخذ يشرح لها الأمر فى صراحة عجيبة : ما دمنا لا نستطيع أن نطوى هذا النبى العربى تحت جناحنا ، فلسوف نعاديه بالضرورة ، إنه يتهم كتبنا بالتزييف والتغيير والتبديل ، ويتلو الآيات عن بنى إسرائيل ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ويسرد قصصنا بطريقة مخالفة . والأخطر من هذا كله ، أنه يدعونا إلى الإيمان بدعوته .. معنى ذلك .. أن يتحول السادة إلى جنود تحت إمرته ، أو إلى عبيد يأتمرون بمشيئته .. ومعنى هذا أن نلقى بكتبنا المحرفة– كما يزعم– ولا نؤمن إلا بقرآنه .. وأن نعترف بنبوة عيسى وإنجيله .. إن دينه كما يقول– هو خاتم الرسالات ، والمهيمن على الديانات القديمة ، والشامل لأمور الدين والدنيا ، معنى ذلك أن نحرم ما حرم ، وأن نحل ما أحله .. معنى ذلك زوال ملكنا وسطاننا ، وانهيار مجدنا ، فلا ربا ولا امتياز لعنصر ما .. ومعنى ذلك أن نؤدى شعائرنا وعباداتنا كما يؤديها .. وأن نرفع شعاره الخطر لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويصبح كنانة بن

الربيع، وحيى بن أخطب، وكعب بن أسد بن قريظة، وكعب ابن الأشرف شاعرنا العظيم، وعمرو بن جحش.. أن يصبح هؤلاء جميعا فى منزلة العبد الحبشى بلال أو المتشرد الغريب سلمان الفارسى، أو دونهم.. والله إن ذلك لن يكون ما دمت على قيد الحياة..

أطرقت صفية هنيهة، لم يعجبها طريقة زوجها فى عرض الأمر الخطير..

وتمتمت صفية بنت «حيى» بن أخطب: « إننى خائفة يا كنانة ..»

– « لماذا؟ »

– « أخاف أن يكون محمد على حق ..»

ضحك ضحكة قصيرة وقال: « قولى صراحة إنك تخافين أن يكون اليهود على باطل .»

– « نفس المعنى .»

– « لعل هذا ما كان يقوله أسلافنا عندما ظهر عيسى بن مريم، لكن هذا لم يمنعهم من السير فى طريقهم، والتمسك بعقيدتهم حتى الآن ..»

قالت صفية فى قلق: « هذا لا يعنى أن أسلافنا كانوا على حق بالضرورة .»

– « ماذا تعنين إذن؟ »

– « إن وجود الوثنيين حتى عصرنا هذا، وعدم إيمانهم بأى نبى لا يعنى أنهم على حق .»

– « إنك يا صفية تتمتعين بمنطق خلاب، وحوار مذهل ..»

– « إننى أبحث عن الحقيقة ..»

صرخ فيها محتدا : « الحقيقة هنا .. فى كتبنا .. الحقيقة التى نملكها باقية منذ آلاف السنين ، يجب أن تكفى عن هذا الهراء .. هذه الفلسفات العقيمة لامجال لها فى موقف الجد الحاسم يا صفية .. إنك تتكلمين بطريقة تخالف المفاهيم التى يتحدث بها أبوك .. من أنت حتى تبدين الرأى فى أمر من أمور الدين؟ النساء للفراش وقدور الطعام ونظافة المنازل .»

أطرقت صفية صامتة ، وانطوت على عالمها الخاص لشد ما تكره تصرفات زوجها ، وتنقم على أفكاره! هذا المتعالى المتغطرس ، ينظر إليها دائما من عل ، ويرمقها فى ازدراء ، ويعاملها كجارية ويرتمى فوقها كالبيضة ولا يكترث لرأيها حتى كأن النساء لا يعرفن كيف يفكرن ، ولا يستطعن أن يفعلن صوابا ، أو ينطقن حقا .. شىء من النفور الزائد يخالط مشاعرها نحوه ، لكنها لا تستطيع أن تكشف عن ذلك ، أو تواجهه به ، إنه قدرها لا مفر منه ماذا يقول للناس لو تركت بيته وآوت إلى بيت أبيها؟ وأشرق وجهها فجاة بفرحة غامرة وتضرجت وجنتاها بحمرة محببة وشردت ببصرها إلى بعيد .

– « فيما تفكرين يا امرأة؟ »

– « رؤيا غريبة فى منامى الليلة الفائتة ..»

– « ما هى؟ »

قالت وهى شاردة فى آفاق علوية محببة ، ولعلها تناست وجود زوجها ملك خيبر العظيم : « رأيت فيما يرى النائم .. أن الظلام قد غطى الأرض بسواده الكثيف وليس فيه بصيص من نور ، أو بارقة من أمل ، وفجأة سطع فى السماء قمر منير ، رأيته يأتى من يثرب ،

يعبر السماء فى مشهد رائع باهر .. العجيب أننى رأيت القمر يميل نحوى . يقترب منى .. ثم .. دخل فى حجرى ..»

أربد وجه زوجها ، وهو يستمع لتلك الكلمات ، وتغيرت سحنته ، ثم كور قبضته ورفعها إلى أعلى ، ثم أهوى بها على وجه صفية قرب عينيها .. فانتفضت فى ذعر ، وهبت واقفة وقد شحب وجهها ، ووضعت يدها على مكان اللكمة ، وقد هطلت الدموع من عينيها ، وامتلأ قلبها بحقد هائل نحو زوجها ، وقبل أن تنطق بكلمة سمعته يقول فى غيظ : « كأنك تحبين أن تكونى تحت هذا الملك الذى يأتى من المدينة »

تمالكت نفسها ، وتمتمت : « أى ملك تقصد ، وليس بالمدينة ملك؟ وهل لى حيلة فى أن أرى رؤيا- أى رؤيا- ثم أقصها عليك؟ أتراني أجرمت؟ »

قال وهو يصرف وجهه عنها : « دعى هذا الحديث السمج ..»

– « أتغار حتى من أضغاث الأحلام؟ »

– « أغار؟ أنا؟ كيف؟ ، ليس فى هذا العالم إنسان يرجحنى .. إننى سيد الجميع دون منازع ! ومن أنت حتى أغار عليك؟ »

حدجته بنظرات ناقمة وقالت : « تأبى إلا أن تملك عواطفى وهواجسى .. وهذيانى أثناء النوم .. إنه أمر فوق الطاقة ..»

صاح فى غضب : « ماذا؟ أتتمردين يا صفية بنت حيى؟ »

– « لا .. معذرة .. إن الإنسان لا حيلة له فيما يرى من أحلام »

– « إذن فلا تسمعينى هذه السخافات »

– « لك ذلك .»

استبد به الضيق ، وازداد الحنق فعاد يقول : « إننى أعرف كل شىء .. أعرف ما يدور بخاطرك ..»

- « أنت؟ »

- « أجل .. أن .. إن فراستى فوق ما تتصورين ..»

عاد أبوها فى اليوم التالى ، كان على موعد مع كنانة وغيره من زعماء خيبر وبنى النضير وبنى قريظة وبنى القينقاع للتدارس فى أمر محمد ، وألمت صفية بما يجرى من تدابير ومؤامرات ، وآلمها أن يقع أبوها فى هذه الأخطاء التى ليس لها ما يبررها ، ولم تقتنع بما يتداوله قومها اليهود من آراء وأحكام ، وعندما انفردت بأبيها همست قائلة : « أبتى ، لست أدرى لماذا تثورون هذه الثورة ، وتشغلون أنفسكم بتلك التدابير الخطرة؟ لم لا تدعون محمدا وشأنه ، وتنصرفون إلى النافع من الأمور ؟ »

ضحك أبوها فى حنان ، وربت على كتفها فى ود وقال : « وهل هناك أهم من الدين حتى نشغل أنفسنا به؟ »

- « لم أركم تهتمون بالدين فى يوم من الأيام كما تهتمون به الآن ! »

- « لأنه ظهر فى هذه الأيام عامل جديد .. كنا مشغولين بتجاراتنا وسلطاننا .. كنا هانئين ، بعد أن توطدت مراكزنا ، واتسع مجدنا ونفوذنا .. لكن ..»

قالت صفية : « لكن ماذا يا أبتى ؟ .»

- « محمد إنه يعرى سوءاتنا ، ويسفه من أحلامنا ، ويتهم كتبنا وأحبارنا .. والمضحك أنه يدعونا إلى دينه .. أتسمعين؟ النبى العربى الأمى ، هذا الذى ما زالت قبيلته تعبد الأوثان .. يدعونا .»

قالت صفية : « إلى دينه .. ليس ذلك أمرا مضحكا .. الله يصطفى رسله كيف شاء ..»

شحب وجهه : « الله؟ أجل .. أجل .. لكننا معشر اليهود لسنا فى

حاجة إلى رسل أو كتب، عندنا رسلنا وكتبنا .. والآن دعى هذا الأمر، وحدثينى عن أحوالك وعن كنانة معك، لا تثقلى رأسك بهذه الأمور الشاقة ..»

أطرقت فى أسى وقالت: « لكنى خائفة يا أبى! »

– « مم ..»

– « إن كان محمد صادقا فلن يضرنا صدقه، وإن كان كاذبا فعليه كذبه ..»

– « بل سيضرنا إن كان صادقا أو كاذبا ..»

– « نفس كلمات كنانة زوجى ..»

– « بالطبع .. نحن على وفاق تام فى الرأى .. إن زوجك ذو رأى حصيف ..»

وصمتت صفية، إنهم يسدون الطريق فى وجهها، ويرفضون حتى مجرد الاستماع لرأيها حتى النهاية، إنها امرأة لا أكثر لا تعرف سوى شئون الطهى والفراش وإدارة البيت.

وسمعت أباها يقول: « لكن ما هذه الكدمة التى فى وجهك؟ »

عادت الإشراقة إلى وجهها، وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل وتمتمت بصوت خفيض لا يكاد يسمع ..

– « القمر قادم من يثرب ..»

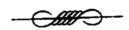
– « ماذا تقولين؟ »

– « لا شىء يا أبتى .. لقد انكفأت على وجهى حينما تعثرت قدمى .. إنها تؤلمنى ..»

قال أبوها فى حنان: « إنها تزيدك فتنة وإشراقا ..»

ثم مرت أيام عصيبة على اليهود، لقد غدر يهود بنو قينقاع بالعهود والمواثيق، كما غدر يهود بنو النضير بنفس الطريقة،

فكان جزاؤهم الطرد من أحيائهم .. وهكذا رحل بعضهم إلى بنى- قريظة- والبعض ذهب إلى خيبر، وهى أكبر تجمع يهودى فى الجزيرة العربية، والبعض الآخر- وهم قلة- غادر البلاد نهائيا .. وهكذا لم يبق بيثرب سوى يهود بنى قريظة الذين أقسموا على الوفاء بعهودهم مع الرسول، وأن يكونوا حربا على أعدائه، وحماية لظهره .. لكنهم فى الأوقات الحاسمة انحازوا لصف الأحزاب فى غزوة الخندق، وطعنوا المسلمين فى الوقت العصيب، لولا حدثت تطورات خطيرة، وهربت الأحزاب وتفرقت «قريش» وغطفان وأسد وغيرهم من القبائل عائدين إلى ديارهم .. وبقى يهود بنى قريظة فى طرف من أطراف المدينة، وقد افتضح غدرهم .. بقوا لمصيرهم المحتوم ..



٢

ساد الذعر معسكر يهود بنى قريظة. وانتابهم ارتباك شديد، وأخذوا يتخبطون فى آرائهم يمنة ويسرة واختلط الصياح بالانتحاب، أصوات رجال ونساء والأطفال. لا يكاد السامع يتبين تفاصيل ما يلقى من أحاديث ونقاش. الشيوخ يقولون فى صوت راجف:

لقد حذرناكم مغبة سوء التصرف. والشباب يقولون: لقد أخطأ القادة التصرف. وقذفوا بنا فى أعماق تهلكة لا قرار لها. والنسوة يهتفن فى لوعة: «لقد أحلتم أمننا إلى خوف. وهدوءنا إلى اضطراب. وسعادتنا إلى شقاء. فابحثوا لنا ولكم عن حل.. ويبكى الأطفال فى حسرة ويتساءلون فى براءة.. ماذا جرى؟ إننا سنذبح ذبح الشياه فى وقت قريب.»

وصاح كعب بن أسد: «أين «حيى» بن أخطب؟»

لقد اختفى «حيى»، إنهم يبحثون عنه وسط الرجال فلا يجدونه: «لو وجدت «حيى» بن أخطب لمزقته إربا إربا.. دلونى عليه يا قوم ورد رجل آخر:»

– «ولم العجلة؟ انتظروا حتى نرى كيف يحل الإشكال المدمر الذى ورطنا فيه.»

لم يكن أحد يدرى كيف اختفى «حيى» بن أخطب ولا إلى أين ذهب، ومن ثم أخذ رجال بنى قريظة يتحدثون عنه فى غيظ. ويرمونه بالحماقة والأنانية. إنهم يحسبون أنه قد هرب.. كما هرب «ابن أبى الحقيق» منذ ساعات.. أيمكن أن يكون «حيى» هو الآخر قد هرب؟.. أهكذا يكون القادة والمسئولون من كبراء

القوم وخيرة الرجال؟ إن قريظة ترى الهارب فى هذا الوقت خائنا يرتكب فى حق الدين والوطن أكبر خيانة . ولا يمكن أن تغتفر جريمة الهروب فى هذه اللحظات .

وخاصة من «حيى» بن أخطب الذى عاهدهم على البقاء إلى جوارهم حتى النهاية . فهو الذى رسم طريق الحرب . ودعا إليها . وسار بشأنها إلى القبائل من غطفان وأسد وغيرهما ، وهو الذى أقنع « قريش » بأن تسوق جنودها إلى المعركة الفاصلة ، ثم إنه أولا وآخرا هو الذى ألح على بنى قريظة كى تنقض العهد . وتتملص من وعودها مع محمد . فكان أن طعن اليهود المسلمين فى أحرج الأوقات طعنة نجلاء لا تنسى!! أيمكن أن ينسى المسلمون أمرا كهذا؟ إن «حيى» بن أخطب هو الذى قاد هذا التمرد ، وهو الذى ساهم بنصيب الأسد فى تحريك تلك الفتنة لإشعال حرب كبرى تبيد المسلمين عن آخرهم ، فكيف يهرب هو ويترك ضحاياه يسقطون فى مأزق خطر كهذا؟ إن الواجب عليه أن يبقى مسئولا وقائدا .. كما كان قبل النكبة .. ليبق لا حبا فيه ، ولا إيمانا بخططه الفاشلة فى إثارة العرب ضد المسلمين ، ولا حفاظا على رجل مخلص عظيم فى يده الخلاص .. لا .. ليبق «حيى» بن أخطب وليقف فى المقدمة كما كان ، فإن حلت كارثة أخرى ، وقعت على رأسه قبل رءوسنا ، وذاق مرارتها مثلما نذوق ، وشعر بما يشعر به التعساء المعذبون من بنى قومه .. ولقد كان «حيى» بن أخطب عند حسن ظنهم .. إنه لم يهرب ، فبعد أن رأى « قريش » و« غطفان » وغيرهما ، أيقن أن الضربة التى كان ينوى توجيهها إلى محمد قد باءت بالفشل ، وأن محمدا بقى كما هو طودا شامخا ، وقوة لم تضعف أو تنهار ، وأيقن أن هذه الأزمة سوف تزيد المسلمين قوة إلى قوتهم ، وستجعل

قلوب الناس تهفو إليهم ، فيكثر أتباعهم ، ولم لا تهفو مشاعر الخلق نحو التوحيد والحرية .. نحو راية القرآن الذى يجمع بين دفتيه خير الدنيا والآخرة .

والأهم من هذا كله ، ماذا سيفعل محمد بيهود بنى قريظة ، أولئك الذين نقضوا العهد فى أحرج الأوقات ، وكادوا يتسببون فى فناء حقيقى للمسلمين ، ويجعلون الدائرة تدور عليهم؟ هذا هو السؤال الذى يطن فى رأس «حيى» بن أخطب ورأس كعب بن أسد ، وهو نفس السؤال الذى يتردد فى أروقة البيوت والشوارع والحوانيت ، إنه السؤال الذى يشغل قريظة كلها .. أيمكن أن يكون مصيرهم مثل مصير بنى قينقاع وبنى النضير؟ ماذا لو أرسلوا الرسل إلى محمد ، وبعثوا إليه بالهدايا ، واعتذروا له عما برد منهم ، وأبدوا أسفهم العميق لما حدث؟ أيمكن أن يعفو عنهم ويكتفى بأن يفرض عليهم غرامة مادية ، ثم يعود لكتابة العهد المنقوض من جديد؟

وشعر «حيى» بن أخطب أن رأسه يكاد ينفجر ، ويشعر أنه غريق فى بحر لجى من الحيرة والاضطراب والرعب .. أجل .. الرعب .. يبحث عن قشة يمسك بها لعلها تأخذه إلى الشاطىء البعيد .. شاطىء النجاة .. والبحر مضطرب ثائر ، والسماء سوداء ليس فيها بصيص من نور .. وسمعه يزدحم بضجيج وصراخ وعواء .. إنه يكاد يجن .. أين أذهب؟ آه .. لقد تذكرها .. تلك المجنونة .. العاقلة .. اليهودية ، تلك التى حذرتنا يوم بنى قينقاع .. ونصحتنا قبل أن تحدث مأساة بنى النضير .. والتى كادت تجن وهى ترانا نرتكب الخطأ الثالث فى بنى قريظة لقد حقرنا من شأنها ، وسفهنا آراءها ، ورميناها بالجنون والعته .. إن لهذه

المرأة كلمات واضحة صريحة، وأحيانا لها تأثير نفسى طيب، لسوف أذهب إليها ..

وأخذ «حيى» بن أخطب يتحسس الطريق إليها، وقصد إلى بيت صغير تأوى إليه .. كانت تجلس منهكة شاردة النظرات، لم تنطمس بعد معالم وجهها الجميل .. وعندما رأته كشفت عن وجهها الشاحب وقالت: « هل أتيت؟ »

– « أتيت محطما عاجزا أبحث عن نور ..»

طأطأت رأسها فى حزن وقالت: « لقد خلفت النور وراءك يوم أن غدرت بعهد محمد .. »

– « أما من عودة إلى هذا الطريق؟ ليس من أجلى .. ولكن من أجل المفزعين من بنى قومنا ..»

– « لست أملك الإجابة يا «حيى» بن أخطب ..»

ودهش «حيى» إذ رآها هادئة حزينة وليست كما رآها لآخر مرة حينما كانت تصرخ وتصيح وتحذر .. وتعترض وتتقى الكلمات الجارحة .. وتمتم «حيى» .. ما بك؟

– « لا شىء يا ابن أخطب ..»

– « أراك هادئة .. ألا تعرفين أنهم رحلوا .. رحلت «قريش» والقبائل وتفرقت الأحزاب .. وبقينا وحدنا .. ننتظر ..»

قالت ودموع تتسرب من خلف أهدابها: « أجل إننى هادئة .. لأن كل شىء قد انتهى ..»

– « ماذا تعنين؟ »

– « لقد استسلمت .. لم يعد هناك جدوى من فعل شىء .. إننى الآن أعيش على أمل الموت .. أقتات الحزن وأذرف الدمع، واستشعر مرارة الندم ..»

قال «حيى» ، وقد دق قلبه : « ألا تفكرين فى مصير التعساء من بنى قريظة؟ ألا تفكرين فيما ينتظرهم؟ »

– « لقد فكرت يا «حيى» عندما كان هناك جدوى من التفكير ، أما الآن ».

– ماذا؟ »

– « ليدفع الغادرون ثمن غدرهم .. وليجاز الخونة على خيانتهم .. هذا هو العدل ..»

قال «حيى» فى ضيق : « العدل ..»

– « أجل يا «حيى» بن أخطب .. وماذا تنتظر من رجل أردت أن تقتله؟ وبأى وجه يقابلك المسلمون وقد غدرت بهم فى أحرج الأوقات ، ورسمت الخطط الرهيبة للقضاء عليهم وإفنائهم؟ ألا تعتقد يا «حيى» بن أخطب أن الجزاء من جنس العمل .. وأن فى القصاص حياة؟ »

لم ينكر «حيى» بن أخطب أنه ارتكب خطأ فادحا ، وأن بنى قريظة قد أتوا إثما باهظا لا يمكن الإفلات منه ، لكن «حيى» يبحث عن وسيلة يتقرب بها إلى المسلمين ، ويترضى بها محمدا ، لذا جاء إليها يسألها الرأى كى يستنير بتوجيهاتها .. وقال «حيى» : « إن محمدا ذو قلب طيب كبير يتسع صفحه لكل الخطاة ..»

سددت إليه اليهودية نظرات فاحصة ، وقالت : « أتعتقد ذلك حقا؟ »

– « بكل تأكيد ، أنت تعرفين ..»

– « أعرف أنك رميته بالقسوة و .. وأشياء كثيرة أرانى فى غنى عن سردها ..»

قال متنهدا: « آه.. إننى أعتب على ما فعله فى بنى قينقاع وبنى النضير، ولهذا رميته بالقسوة.»

- « وماذا تقول عن نفسك وعن بنى قريظة.. أثناء تجمع الأحزاب خلف الخندق، وانحيازكم إلى المعتدين فى ذلك الوقت العصيب؟ ألم يتفق محمد معكم أن تحموا ظهره، وتمدوه بالطعام ثم غدرتم به فى أحرج وقت، وانحزتم لأعدائه؟»

وسمعت دقات على الباب الخارجى، ودخل أحد الرجال وقال فى صوت متحشرج لاهث: « يا «حيى» بن أخطب. ألم تسمع ما جرى؟»

- « ماذا؟»

- « إن المسلمين بقيادة محمد فى الطريق إلينا ..»

- « كيف؟»

- « هذا ما حدث ..»

- « إذن فلتسرعوا إلى حصونكم وقلاعكم، والبسوا لباس الحرب، وأعدوا أنفسكم ليوم عصيب.. إن لدينا من الأقوات والسلاح والرجال ما يكفى لصمودنا فترة طويلة ..»

وضحكت اليهودية فى مرارة وهى تقول: « ألا تعرف كيف حدث ذلك يا «حيى» بن أخطب؟»

وأسرع «حيى» خارجا، وكم كانت دهشته حينما رأى اليهود يعانون من ضيق شديد، ورعب قاتل، فلو صحت شائعة قدوم المسلمين إلى هنا. فليس هناك مدعاة لذلك الرعب كله، إن لدى اليهود من الاستعدادات المختلفة ما يجعلهم فى أمان لفترة طويلة، وحصونهم منيعة لا يمكن اختراقها بسهولة، ثم إن المسلمين ليس من المعقول أن يخرجوا لحرب قريظة فى اليوم التالى لرحيل

الأحزاب ، إن المسلمين قد نالهم الكثير من التعب والعناء ، وهم يحرسون حول المدينة ، ويرابطون إلى جوار الخندق . وينازلون الأعداء فى معارك متعددة .. فهل يصدق عاقل أنهم يخرجون توا لحرب قريظة ، وهم أشد ما يكونون إرهاقا ، وأشد ما يكونون لهفة للقاء أزواجهم وأولادهم ، وأمام ما تموج به جموع قريظة من خوف وهلع . وقف «حيى» بن أخطب بينهم خطيبا وقال : « يا بنى قريظة .. أراكم فى هم قاتل .. إلا إنكم لتهزمون أنفسكم دون أن توجه إليكم سهام من عدوكم ، وتمهدون لنصره عليكم ، وأنتم فى أيديكم القوة والصبر على البلاء ، والصمود فى الصباح والمساء ، يا بنى قريظة .. إنكم أوفر مالا من محمد ، وأكثر ماء وأقوى شكيمة وأمنع حصونا ..»

وصاح رجل وسط الجموع الهادرة وقال : « يا «حيى» بن أخطب .. إنك تخدعنا ..»

صمت «حيى» برهة ، ثم مضى فى خطبته : « لقد أردت لكم الخير دائما ، حاولت جاهدا أن أرتفع باسمكم إلى عنان السماء ، وأن أكيد لعدوكم ، وأرفع من شأن دينكم ، وحاولت أن أحمل العرب لحماية تراثكم ، من النبى محمد وصحبه .. أما وقد حدثت أمور لا حيلة لى فيها ، فليس معنى ذلك أننى أخدعكم ..»

وصاح رجل آخر من بنى قريظة مقاطعا : « يا «حيى» بن أخطب .. أنت ترمى بنا فى المهالك .»

صاح «حيى» بن أخطب بصوت محتبس : « لقد أردت لكم النجاة يا بنى قريظة .. لم أكن أهدف إلا إلى السلام والمنعة لكم ولسلطانكم فى بلاد العرب وكنت أفكر فى إخوان لكم ساروا فى

الدروب الطويلة وسط الصحارى القاحلة، يجرون خطاهم الذليلة فى أرض العذاب والضياع .»

وحدثت همهمات واعتراضات صاخبة، كلها يتهم «حيى» بن أخطب بالخطأ وسوء التقدير، وأدرك «حيى» أنه من العسير عليه أن يرد إلى هذه الجموع أمنها واطمئنانها بهذا الأسلوب، لابد أن يبحث عن أسلوب آخر يناسب هؤلاء الذين تحطمت آمالهم، وتلوثت بالقاذورات، أسلوب يتفق مع ما يسودهم من ذعر وجبن بالغين، إذ إن الكارثة وشيكة الوقوع والعقاب محقق، ولأن محمد أقوى الجميع فى ذلك الوقت، واندحار الأحزاب قد قوى من جبهته، ورفع من روح جنوده، ولأن جريمة اليهود وإدانتهم أمر لا يختلف عليه اثنان، لهذا تصرف «حيى» بن أخطب بسرعة وغير أسلوبه فى الحديث، واستطرد يخطب يا بنى قريظة: « يكفى ما تعرضنا له من هجوم ومآس، وأراكم فعلا متعبين وفى مسيس الحاجة إلى أيام من الدعة والهدوء، حتى تسكن نفوسكم وأرواحكم، وتستقر أفئدتكم، ولهذا سوف أوفد الرسل إلى محمد بن عبد الله مستعينا بحلفائنا الأقدمين من الأوس والخزرج. وسنبدى له أسفنا واعتذارنا، بل واستعدادنا المطلق لكل ما يطلبه منا، مقابل الصفح عما ارتكبناه فى حقه من نقض للعهد .. لقد كان فى نيتنا يا بنى قريظة أن نغتال محمد وأن نقضى على المسلمين لكن شيئا من ذلك لم يوضع موضع التنفيذ، ومن ثم فإن فرصة الصلح مع محمد فرصة كبيرة .. وبعدها يعود الوئام والاطمئنان وتسود روح الود والصداقة بين اليهود والمسلمين من جديد .. وساد الصمت فترة وجيزة .»

وعاد «حيى» بن أخطب يصيح قائلا: « ما رأيكم؟ »

قال أحد الشيوخ : « لعل هذا هو التصرف الوحيد الذى قد يؤدى إلى حقن الدماء وسيادة السلام وما أظن أن هناك بديلا لهذا التصرف ..»

وقال «حيى» بن أخطب معلقا : « ومع ذلك يجب أن نكون على حذر .. سيوفنا فى أيدينا ورجالنا فى قلاعهم وحصونهم، ومداخلنا محروسة، والجميع على أهبة، إنه قد تجد أمور يا بنى قريظة .. فلا مناص من الحيطة والله الموفق .»

وارتفعت ضحكة ساخرة ..

وتلفت «حيى» بن أخطب، ليرى من هذا الذى لا يحترم مشاعر الأسى العام الذى لف الربوع، وحط على قلوب الناس ووجوههم؟

– « من؟ كعب بن أسد؟ أين كنت؟ ولم تضحك؟ »

استجمع كعب كل شجاعته وقوته، ثم بصق .. بصق بقوة فى وجه «حيى» بن أخطب .. وصرخ قائلا : « ألم أقل لك إنك امرؤ شؤم؟ ألم أقل لك يا «حيى» بن أخطب، إنك جئتنى بذل الدهر، وكل ما يخشى، جئتنى بجهام قد أهريق ماءه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شىء .»

ألم أقل لك يا «حيى» دعنى وما أنا عليه، فإننى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء، عما تتحدث الآن أيها الشيطان؟ لقد أحاط بنا الفناء من كل جانب .. إن الشىء الوحيد الذى يبرد غلتى، ويهدىء من ثورتى .. هو أنك معنا .. معنا .. لتشرب من نفس الكأس المريرة المذاق .. تلك التى سنشربها حتى الثمالة .. أيها الملعون ..





٣

ران الصمت على يهود «خيبر»، واتشحت النسوة بالسواد، وماجت صدور الرجال بالحقد الممتزج بالخوف، وأدار سيدهم وملكهم «كنانة بن الربيع» رأسه إلى الآفاق الرحبة الممتدة إلى بعيد، يمسح الرمال الصفراء بنظرات حزينة، وتغلى رأسه بأفكار مضطربة راجفة.. أهكذا تكون نهاية بنى قريظة؟ أهكذا تكون نهاية صهره الغالى «حيى» بن أخطب والد زوجته الأميرة صفية؟ لو يملك سيد خيبر العدد الكافى من الرجال والسلاح لانقض على المدينة وجعل عاليها سافلها، ودمر مبانيها على رأس محمد وصحبه، وأشعل النار فى مساجدهم ومراعيهم، وأحرق الرجال والنساء والأطفال أحياء.. أجل أحياء حتى يتلذذ بما يقاسونه من عذاب وهوان، لكنها أمنيات عاجزة مقهورة، والعجز قاس رهيب يبعث المرارة فى مذاق الحياة، ويحيل بهجتها إلى أسى. وضياع وحسرة.. الحقد يأكل قلب سيد خيبر، وحيثما يكون الحقد، لا يفسح مجالا للتفكير السليم أو المنطق الواضح الصحيح.. الحقد يعمى العين عن رؤية الحقيقة ويسد فى العقل منافذ التحرر والإنصاف.. الحقد أبكم وأصم وأعمى.. لا يفعل سوى أن ينفخ النيران، ويبعث بمخالبه لتمزق وتريق الدم.. الحقد رذيلة كبرى رغم ما حدث من مآس، فإن سيد خيبر لن يهادن محمدا حتى لو أصبح محمدٌ أقوى منه، وسيد خيبر سيثيرها حربا شعواء، لقد كان «حيى» بن أخطب على حق حينما حشد «قريش» والقبائل واليهود فى صف واحد لضرب محمد، ولن تنجح أية حركة تقوم

ضد محمد إلا إذا سارت فى نفس الطريق الذى سار فيه «حيى» .. مع محاولة تجنب سوء الحظ الذى حالف التكتل السابق .. إن على خيبر أن تعد نفسها ليوم مشهود ، وأن تحشد كل إمكاناتها من مال وسلاح وأقوات ورجال للمعركة الكبرى ، إن دماء قريظة تصرخ بالثأر .. وذبح «حيى» بن أخطب كما تذبح الشاة مأساة كبرى ، فلن يكون اليهود يهودا إلا إذا مسحوا عارها وأساها العميق ..

أيكون هناك نصر بغير تضحيات؟ أتشتعل معركة دونها حقد دفين؟ إنه الوقود الذى سيدفع خيبر إلى خوض غمار حرب ضارية تأكل الأخضر واليابس .. ووقف كنانة بن الربيع يتقبل العزاء فى صهره ، وأخذ رجالات خيبر يتقدمون إليه واحدا واحدا ، إنه يصافحهم وهو فى ذهول وكرب شديد ، هيهات تغنى الكلمات عن المصاب الفادح وقف ابن الربيع بينهم خطيبا :

يا رجالات خيبر لقد فقدنا رجلا عظيما ، ولسوف يمر وقت طويل قبل أن تجود السماء برجل مثله .. إن «حيى» بن أخطب فلتة من فلتات الزمان ، كان يعرف جيدا ماذا يفعل وكان يدرك أبعاد الخطر الإسلامى الداهم منذ البداية ، عندما هاجر محمد إلى المدينة هاربا برجاله القلائل بعد أن كادت «قريش» تقتله ، وفكر محمد فى عقد حلف مع يهود المدينة وضواحيها ، رفض «حيى» بن أخطب التوقيع على هذا الحلف فى البداية ، وحذر اليهود من مغبة ذلك ، وأفهمهم أن الاتفاق المزمع عقده يجعل من محمد ملكا على المدينة وما حولها .. ويقوى من شوكته ، ويحمى ظهره ويجعله فى منعة– أو ما يشبه المنعة– من أعدائه القرشيين .. كان محمد يا رجالات خيبر يحمل مبدأ وعقيدة ، من السهل فهمها ، وتقبلها لدى عقول العامة .. ولم تكن «قريش» تملك هذا الرصيد ، ومن ثم فإن

«قريش» لا تشكل خطرا حقيقيا على محمد ودعوته .. نحن اليهود نشكل الخطر الحقيقى وحدنا ، ومحمد كان يدرك ذلك .. ولهذا حرص على التحالف معنا حتى يفرغ لأعدائه القرشيين وغيرهم من القبائل الجاهلة على أمل أن يزداد أتباعه وتقوى شكيمته ، ويصبح القوة الوحيدة المهيبة التى لا يستطيع اليهود ولا غيرهم التصدى لها .. كان «حيى» يدرك ذلك .. ولما لم يستجب اليهود له . وأظهروا عدم مبالاتهم ، وكذلك استهتارهم بنوايا محمد ومطامعه .. لم يطمئن «حيى» بن أخطب .. وقف متيقظا يرقب الأحداث ، ويرى الخطر ينمو ، فاندفع يدبر ، ويحشد الحشود يضرب القوى النامية فى قلب الجزيرة العربية .. إلى .. إلى أن مات «حيى» بن أخطب شهيدا .

وجفف كنانة دمعة سقطت من عينيه واستطرد قائلا : « ورأينا بأعيننا طرد بنى قينقاع ، وشهدنا رحيل بنى النضير الحزين الباكى .. ثم كانت الطامة الكبرى يوم ذبح المقاتلون من بنى قريظة ، وعلى رأسهم رب السيف والفكر والعقيدة «حيى» بن أخطب ..»

ثم صاح بصوت جريح : « أترى تغيب شمسنا عن أرض العرب ، ويضع محمد بسيوفه النهاية الأليمة لملحمة النضال اليهودى الصابر؟ والله إن بطن الأرض خير من ظاهرها ، وهيهات أن تقر لنا عين ، أيهدأ لنا بال ونحن نعيش تحت سيطرة محمد وتهديده .»

وصاح رجل فى المؤخرة : « يا كنانة بن الربيع .. ليست الخطورة كامنة فى سيوف محمد ، ولكنها فى أفكاره .. فى سطور الكتاب المنزل عليه .»

اهتاج ابن الربيع وهتف : « دع أفكار محمد وقرآنه .. نحن

نتحدث عن الثأر والحرب، إن الحديث فى مثل هذه الأمور يبعث الوهن فى النفوس ويوقع بيننا الخلاف والتردد، لسنا على استعداد لأن نناقش أفكاره الآن، لقد فات الأوان، وجرت الدماء بيننا وبينه، ونحن مؤمنون بديننا، ونرفض أى شىء جديد .. نرفضه بشدة، ودون تردد .. افهموا ذلك جيدا يا أبناء خيبر الأبطال .»

وعاد رجل المؤخرة يقول : « كلمات محمد يا سيدنا هى العامل الحاسم فى المعركة لماذا نضع رءوسنا فى الرمال، ونتجاهل الحقائق الواضحة والصارخة؟ كلمات محمد هى التى صنعت رجاله، وشكلت النسق الجديد لسلوكهم وأفكارهم، البطولات التى ظهرت بين يدى محمد وانبثقت من تعاليمه هى التى تهزمنا .»

وهنف كنانة بن الربيع : « وماذا نفعل إذن؟ »

– « ندرس الرجل وأفكاره على ضوء جديد .»

فقهقه كنانة فى حسرة : « ندرس؟ إنه لشىء مضحك! . عندما تتم دراستك يكون كل شىء قد انتهى .. يكون محمد قد استعد استعدادا كاملا، وأطبق علينا من كل صوب .. أو يكون رجالنا الضعاف الإيمان قد تحولوا إلى دينه، وصبأوا عن دين الآباء والأجداد .. هذا هو الموقف بصراحة .»

إننى يا رجالات خيبر لم أقف بينكم خطيبا، لأترنم بالقصائد فى رثاء قريظة وحيى بن أخطب، ولم أتحدث إليكم لكى نتدارس أفكار محمد وكلماته وانعكاسها على رجاله .. إننى أحدثكم فقط عن الخطر المحدق، وأذكركم بالثأر الذى يصرخ بكم، وأدعوكم لكى تعيشوا رجالا أو تموتوا رجالا، ولا شىء غير ذلك، وسأغلق سمعى عن تلقى أى حديث أو رأى خارج عن هذا النطاق.

طأطأ الرجال رءوسهم صامتين ، ولم يمنعهم ذلك من الحديث حول أفكار محمد وكلماته المنزلة من عند الله ، وما يرويه من القرآن عن بنى إسرائيل ، عن تاريخهم .. وكأن محمدا كان حاضرا فى تلك الأزمنة السحيقة أيام موسى وهارون ، وداود وسليمان ، وزكريا ويحيى وعيسى ، وألوان الغدر التى عرف بها بنو إسرائيل وانحرافاتهم القديمة .. كل شىء يعرفه محمد ، إن كلماته حق .. لو لم يكن لدى محمد لكفاه ما يكشف عنه من أقاصيص وأسرار ، بل إن معجزته الكبرى هو ذلك الجيل الذى أخرجه محمد إلى الوجود .. الجيل الذى استخلصه من بين تقاليد الجاهلية ونزاعاتها وصراعاتها القبلية ، وثاراتها الموروثة . وعقائدها المتعفنة الخاطئة .

قال رجل يهودى حكيم : « أخطر ما فى محمد أنه استطاع أن يحرر طاقات الإنسان فأبدع .»

ورجل آخر قال : « بل أرسى قواعد التوحيد فى نفوس رجاله فأصبحوا لا يعبدون بحق إلا الله ، ولا يخافون سواه .»

وقال ثالث : « كل واحد من رجاله يحاول أن يلحق بمرتبة النبوة وطوال الطريق إلى ذلك يتطهرون بالجهاد الدائب ، والعبادة المتصلة . كل شىء عنده عبادة . العمل الصالح عبادة ، حفظ آيات الله عبادة . الصدق والوفاء والأخوة .. الفضائل كلها عبادة .»

وقال رابع : « إن كلمات محمد قد استجابت لأشواق الإنسان التائه الحائر ، فوجد فى ظلها الأمن ، انظروا أيها السادة إلى محمد حينما يقول : « من بات آمنا فى سربه معافى فى بدنه . عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها » .»

تنهد الرجل الذى كان يصيح فى المؤخرة وقال: « فكيف تهزمون رجلا هذا شأنه، فلنبحث لنا عن طريق آخر غير الحرب .»

وكان هناك حبر من الأحبار يستمع إليهم، ويلتقط كل كلمة يتفوهون بها . فقال: « ربما يكون الصواب قد حالفكم فيما تبدون من آراء، لكن هذه الآراء قد تتغير إذا ما كنتم فى مركز المنتصر .. إن الهزيمة التى حاقت بنا قد جعلت كفة العدو هى الراجحة، وأظهرت مبادئه فى صورة من القوة والإشراق لا يمكن التصدى لها، ولو انتصرنا لبحثتم عن روعة مبادئنا، ولجلوتموها بصورة مشرفة وإنى لأرى رأى كنانة بن الربيع لنسترد كرامتنا ونقف على أرجلنا فى ثبات وقوة وثقة، ثم ننظر فى عقيدتنا وعقيدة عدونا، عندئذ يكون الحكم صائبا .»

لم يعد هناك من طريق سوى الحرب، ولا شىء غير الحرب وعاد كنانة بن الربيع إلى بيته وانقبض صدره حينما تناهى إلى سمعه صرخات ملتاعة . هذه صرخات زوجه صفية بنت «حيى» بن أخطب .. إنها تندب أباها، وحق لها أن ترتدى السواد وتشق الجيوب، وتلطم الخدود، وتضع التراب على رأسها، حق لك أن تفعلى ذلك يا زوجتى المسكينة .

وعندما دخل كنانة مطأطىء الرأس رفعت إليه صفية عينين دامعتين ممتلئتين بالدموع وصاحت: « مات أبى يا كنانة .»

غمغم ابن الربيع: « لقد لاقى الله بطلا شهيدا .»

– « أنتم تخدعوننى؟ »

– « أو تشكين فى ذلك يا امرأة؟ »

– « أنتم الذين دفعتموه إلى الفناء . تركتموه يسقط دون مبرر .»

– « أنت تخطئين يا صفية . لقد سقط دفاعا عن شرفه وشرف عقيدته . مات وهو يردد : لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل .. هكذا كان يقول .. لم يتزعزع إيمانه أو يفقد ثقته بنفسه ، تحدى السيوف والموت وتقريع محمد له ، لو كان كل اليهود على شاكلة أبيك لحطمنا محمدا منذ زمن بعيد .»

وعادت تولول وتقول : « قولوا ما شئتم ، فليس فى رأسى سوى حقيقة واحدة . حقيقة مرة أليمة وهى أن أبى مات ، مات حزينا تعسا ، وأنتم هنا تنعمون بالحياة ، وتأكلون وتشربون .»

اكفهر وجهه وهتف : « تعست حياتنا إذا لم نقضها فى مواصلة الصراع ، والعمل على الأخذ بثأره من محمد وأتباعه .»

– « أو تعودون للشقاء مرة ثانية؟ »

– « لن ننكص أو نتراجع» .

وشردت بنظراتها الدامعة ، وأخذت تقول : »

– « قلت لأبى محذرة دعك من هذا الصراع الذى لا طائل تحته ، فإذا كان محمد نبيا فلا مجال لمعاداته ، بل الأوفق الإيمان بدعوته ، وإن كان غير ذلك فسيضع الله حدا للدعاوى الباطلة .»

زم شفتيه ، وقرب حاجبيه وهتف .

– « السيوف وحدها هى التى تضع الحد للدعاوى الباطلة .»

وابتلع ريقه ، ثم عاد يقول : « إن فداحة المصاب قد أوعزت إليك بالأراجيف ، وبذرت فى نفسك الوهن ، لاكنت صفية بنت «حيى» إذا لم تطربى لاستشهاد أبيك ، وتسيرى على نهجه .»

فلم يرق لها حديث زوجها ، بل أخذت تستمع إليه فى ضيق وامتعاض . وتمنت فى هذه اللحظات ، أن تجرف الأوحال بيديها ، وتلطخ وجه زوجها بها وتصرخ فيه : « أنتم تكذبون ، أنتم عصارة

الحقد النجس والزيغ القديم والانحراف الأزلى، إن محمدا على حق، وأنتم على باطل، إننى أعرفكم جيدا، وأعرف البشارات التى نبأت بظهور النبى الجديد، البشارات التى تخفونها وتنكرونها »

لكنها لم تستطيع أن تنطق بمثل هذه الكلمات. إن صورة أبيها الذبيح، ودمه المراق ولحيته البيضاء، وموقف الذلة والهوان، شىء لا يمكن أن تنساه، وشىء آخر يثب إلى ذهنها من آن لآخر فى هذا الموقف المؤلم الحزين، أو تلك الرؤيا الغريبة؟ ذلك القمر القادم من المدينة إلى خيبر، ذلك القمر الذى مال من أفقه، وانحدر صوبها، ثم استقر فى حجرها يا لها من رؤيا غريبة! وهل تنسى أن زوجها كنانة بن الربيع قد سدد إلى وجهها لكمة قوية عندما أخبرته بالرؤيا؟ لكن أباها مات. لا يصح أن تستسلم للهواجس وتذكر هذه الرؤيا فى معمعان الحزن الداهم، والأسى الصاخب الذى يلقى ظلاله الكثيفة على الربوع، ويوشح الأفق المعتم بأرديته السوداء.

وعادت تصرخ: « واكرباه!! واحبيباه!! وامصيبتاه!! »



٤

هتف كنانة بن الربيع بزوجه صفية بنت «حيى» بن أخطب قائلا :

– « صفية أين أنت؟ »

وقدمت صفية شاحبة الوجه ، حزينة العينين لا يبدو على ثيابها أدنى أثر للأناقة أو الاهتمام ، وخصلات شعرها تنفر من تحت شالها الأسود ، معبرة عن الإهمال الزائد ، ومع ذلك فإن هذا كله لم يستطع أن يطمس مسحة الجمال الرائق الجذاب التى تنطق بها ملامحها المتناسقة ، بل لعلها بدت فى هذا الإطار المهمل وكأنها أكثر جمالا ووقارا ، ووقفت محنية مطأطئة الرأس وهمست :

– « معذرة :

كنت مشغولة ببعض شئون البيت » .

انفجر فى غيظ : « ماذا جرى لك؟ إننى لا أطيق هذه المعاملة ، فلأكن جزءًا من شئون المنزل . إنك تتجاهلين أمرى ، وتكبدينني الكثير من الضيق والكدر .. إننى أرفض هذه المعاملة ، وأنحى باللائمة على هذا السلوك الشائن .»

تمتمت فى نبرة احتجاج : « الشائن؟ .»

– « أجل .. إنك لا تراعين حقوق الزوجية ، ولا تعطينى حقى من الرعاية والاهتمام ، إن نسوة « خيبر » كلهن يتحدثن عن انطوائك المريب وصمتك الزائد ..»

قالت وقد تندت عيناها بالدموع : « انطوائى المريب! كيف

تقول هذا الكلام ؟! الجميع يعرفون مأساة أبى ، فهل على لوم إن أنا انشغلت- على الرغم منى- بالحزن عليه؟ »

صاح فى حدة : « وأنا؟ »

- « أنت زوجى ..»

- « هذا لا يكفى .. إن كأس المنايا دوار على كل الشفاه ، كل ما فى الأمر أن أباك سبق إليه ، ولم يكن وحده ، كان معه المئات ..»

- « ما كان أبى مثل كل الرجال . كفى ما كان .»

- « ماذا تعنين؟ »

- « لم يعد هناك مسوغ لمزيد من الدماء .»

- « إنك تنطقين بكلمات خطيرة يا صفية ، أهون ما تعنيه أن أباك لم يكن على حق ، وأن مستقبل اليهود لم يعد يؤرقك »

- « لكل وقت ملابساته »

- « إنك تشردين بى إلى قضايا خطيرة ، إلى متاهات مرعبة ، لندع أمر محمد والحرب واليهود . إنك فى هذه الأيام تهربين منى وتتحاشين اللقاء بى .. تنامين وحدك .. إننى بدأت أشك فيما يربط بيننا من رباط مقدس .. مستحيل أن يكون السبب هو ما يعتمل فى قلبك من أحزان ، إننى لا أقل حزنا على ما أصابنا نحن اليهود من مصرع أبيك العظيم . إن هول الكارثة لم يأخذ بيدى إلى ظلام اليأس ، بل أشعل فى قلبى الجذوة الملتهبة ، جذوة الحقد ضد المسلمين من ورائه .. الحزن ليس معناه أن أتجاهل نداء الحياة والواجب ..»

قالت فى ضراعة : « صدقنى يا كنانة لا حيلة لى فيما أفعل ، ولا سيطرة لى على مشاعرى ، إننى لا أستطيع أن أضع للحزن مواصفات معينة أو موازين دقيقة ، إن حزنى لا يعرف التعقل أو

الدقة، إنه طوفان عارم يشل إرادتى، ويغرقنى فى أمواجه الصاخبة، ويقذف بى هنا وهناك .. إننى أتخبط يمنة ويسرة لا أعرف لى قرار ولا أرى شاطئا للنجاة، نحن فى أيام شقاء مريع، إننى أستغرق فى النكبة وأتمثلها بكل أبعادها، ارحمنى يا كنانة، إننى عاجزة عن الثبات. أبحث عن الصبر فلا أجده، وأتلمس اليقين فى مظانه، لكنى حائرة ممزقة، إننى أضرع إلى الله، أتراه لا يستمع لندائى، أنا صادقة الرغبة فى النهوض والتماسك لكن قواى منهارة تماما .»

هب واقفا واقترب منها، وأمسك بيدها الباردة، وقال وهو يرمق أهدابها المبللة بالدموع : « بالله عليك لا تقولى هذه الكلمات يا صفية، إنها قاسية، إنها أقسى على من ضربات السيوف، لم يزل فى الحياة بقية من أمل، ونحن لا نستطيع أن نسحق ما تبقى من أيامنا تحت معول الأحزان الهدام المدمر، لو لمح الناس أحزانهم لانطفأ كل نور فى الحياة، ولتلطخ جبينها بالسواد الكافى، هيا انفضى عن كاهلك ما يثقلها من هموم. إن ميتة أبيك ميتة بطل لم يدخر وسعا فى سبيل الحفاظ على شرفه ومبادئه، وهذه الميتة تبعث على الفخر والسعادة »

ثم تلعثم وطأطأ فى أسى وقال : « أنا أحبك يا صفية .. أحبك لدرجة العبادة ولا أستطيع أن أتحمل غيابك عنى ساعات معدودة .. أنت حياتى وهنائى ووجودى فلا تعذبينى بهذا الصد، ولا تمزقى قلبى بتجاهلك لى .. ارحمى .»

وشردت صفية إلى بعيد. ها هى الرؤيا الغريبة تثبت إلى ذهنها .. القمر الوافد من آفاق يثرب، ذلك القمر الذى يدنو صوبها رويدا رويدا، ثم يهبط إلى حجرها .

– « فيم تفكرين يا صفية؟ »

تداركت أمرها . وأفاقت من شرودها ، وقلبها يدق فى عنف وقالت متلعثمة : « وما قيمة الحياة التى يتهددها الفناء ، وتحدق بها الأخطار من كل جانب؟ »

– « لا تحملى هما يا حبيبتى . لدينا من الذهب ما يكفينا مئات السنين ، هل نسيت يا صفية أننى أمتلك كنز بنى النضير .. كمية ضخمة من الذهب أخفيها عن العيون ، لا يعرف أحد أين هى . إنها تكفل لنا العيش الرغد طول حياتنا ، فإذا ما تأزم الموقف ، وأطبق علينا الخطر استطعنا أن نحمل كنزنا ونهرب إلى أى مكان ، إن ما أفكر فيه هو أنت يا حبيبتى .. إننى لا أفكر فى حرب محمد إلا من أجلك أنت ، ومن أجل أبيك ، إننى أحاول جاهدا أن أحفظ عليك كرامتك ودينك ومستقبلك .»

وأخذ كنانة يصب على سمعها كلمات الحب والغزل ويغمرها بآيات صدقه ووفائه . ويعتذر لها عما بدر منه من عنف أو قسوة فى ماضى الأيام ويؤكد لها أن كل ما كان يقدم عليه إنما كان انفجارا عما يشعر به من تجاهلها له وبرود عاطفتها نحوه ، وهل هناك ما هو أشد حدبا عليها ، وتشبثا بها . وحبا لها من زوجها؟ والغريب أن هذا التوسل المتزايد وهذه الاعترافات الذليلة لم تكن تزيدها إلا نفورا منه ، واستثقالا لظله ، وتبرما بحديثه .

– « لو كنت تحبنى حقا يا كنانة لاحترمت أحزانى .»

– « إننى أشفق عليك . وأريد أن أنسيك بعض ما تعانين من آلام والحزن لا يمنع الناس من أن تأكل وتشرب وتنام وتمارس حياتها الزوجية ، الناس يموتون والأطفال يولدون ، والحروب تشتعل ، والسلام ينشر ظلاله ، والحياة تمضى يا حبيبتى »

وأفلتت منها كلمات خطيرة، قد يكون لها وقع الصاعقة لو أدرك معناها. قالت: « ليست هذه القضية .»

رفع حاجبيه فى دهشة وقال: « ما هى القضية إذن؟ »

ورفع كنانة حاجبيه فى دهشة وتنبه وأعطاها أذنا صاغية، وأدركت هى ما تورطت فيه من تعليق فأسرعت قائلة: « القضية هى عجزى الشنيع عن مقاومة الضعف والحزن .»

قال وقد انجاب عن قلبه ما اعتوره من هواجس مخيفة: « طيبى نفسا يا حبيبتى، لسوف أبقى على جوارك محاولا - بكل ما أوتيت من قوة - أن أخفف عنك، وأن أمسح دموعك الغالية، وأن أذهب عنك الأرق والوجوم .»

وصمت برهة، وهتف وقد أخذته العزة: « ولسوف يأتى يوم أقدم إليك فيه أروع هدية تحلمين بها .»

قالت دون اكتراث: « كنزك المخبوء؟ »

قهقه فى مرح وقال: « لا .. إن كنزى ملك يمينك الآن .»

فشد انتباهها إليه، فقالت: « أية هدية تقصد إذن؟ »

قال وقد تصلبت ملامح وجهه: « رأس محمد »

خفق قلبها فى رعب، وصرخت: « ماذا؟ »

قال وقطرات من عرق تلمع فوق جبينه.

- « إن ضربتنا هذه المرة ستكون قوية حاسمة، ولن تكون هذه أول مرة يقتل فيها اليهود نبيا لا يروق لهم .. وعندما يتحطم البناء الشامخ الذى حاول محمد أن يقيمه على مدار السنين، فلسوف يسقط فى أيدينا وعندئذ أجتز رأس محمد دون رحمة أخذا بثأر أبيك، وسأحمل إليك هذه الرأس الغالية، وألقى بها فى حجرتك على حين غرة وستصرخين فى البداية مذعورة، ثم

نضحك، ونملأ الآفاق مرحا ونشيدا، ونغنى على أشلاء المسلمين »

ثم ابتلع ريقه، وأفاق من أحلامه الدامية الحمراء وقال: « أليست هذه أروع هدية تحلمين بها؟ سيكون العلاج الناجح لكل آلامك وأحزانك .. فماذا تقولين؟ »

ألقت بجسدها المتعب على وسادة قريبة وهى تقول: « إن رأسي يدور وعيناى لا تكادان تريان شيئا .. إننى خائرة القوى متعبة، أبغض شيء إلى نفسي حديث الدماء ..»

سدد إليها نظرات حائرة مستغربة وبقى فى مكانه صامتا.



٥

وضع كفه اليمنى فوق حاجبيه مبسوطة ليتلقى ضوء الشمس القوى، نظر إلى بعيد . هناك على بعد أميال تقبع « خيبر » وامتطى ناقته وحثها على المسير ، كان يمشى وحده ، لكنه يشعر بضعف بالغ ، وأسى مكتوم . وسمع صوته من خلفه يهتف به : « إلى أين يا عبد الله بن أبى؟ »

التفت المنافق الأكبر خلفه فى ازدراء ورمى محدثه بنظرة عاتبة ، لماذا يصر على التدخل فى شأنه أو التدخل فيما لا يعنيه؟ آه .. إن عيون محمد تنبث فى كل مكان ، إذا تكلم أو مضى لبعض شأنه لاحقته العيون والاستفسارات .. إنه حصار سمج مميت ، لكن عبد الله بن أبى تمالك أعصابه ورد قائلا فى سخرية : « رحلة إلى الله .. »

وتركه وانطلق بناقته التى تسرع الخطوة نحو « خيبر » ، وخيبر غنية بالذهب والزرع والضرع وفيها الرجال الأشداء المغاوير ، وفيها الحصون المنيعة ، والسلاح الوفير ، وفيها « سلام بن مشكم » القائد الهمام ، وفيها « كنانة بن الربيع » الزعيم اليهودى الثائر زوج صفية بنت «حيى» بن أخطب .. أجل هناك الحقد العظيم المدمر ، وفى قلوب الرجال رغبة عارمة إلى الثأر .. الثأر لبنى قينقاع والنضير وقريظة ، ولكعب بن الأشرف وحيى بن أخطب وكعب بن أسد وغيرهم .. هؤلاء الأصدقاء الأوفياء الذين ضحوا بكل شىء ولم يهدأ لهم جفن ، أو يطمئن لهم قلب ، إزاء الصراع مع محمد ، وظلوا أوفياء للحقد العظيم حتى لاقوا حتفهم ..

وفى خيبر يا بن عبد الله بن أبى تجد البيئة الصالحة لدعوتك، وتجد العقول المفكرة والقادرة على استيعاب آرائك واستقراءاتك للأحداث المقبلة .. لم تزل خيبر أرض الأمل، وقاعدة الانطلاق لتدمير محمد وهدم البناء الصلد الذى أقامه ووقف فوقه يكبر ويهلل، ويدعو الناس للانضواء تحت لوائه .. وتذكر عبد الله فجأة ما قالته له زوجته بالأمس القريب : « هناك فى الصحراء المترامية لكل إنسان حفرة ضيقة » لشد ما يؤلمه أن يستمع لهذه الكلمات .. إنه متشبث بالحياة، أشد التثبت، يكره أن يموت، أيموت محطم النفس والروح مهزوما؟ أتذهب كل الجهود التى بذلها فى حياته هباء؟ ألا إن ضربة الموت قاصمة، لا نجاة منها ولا مهرب، وهذا ما يحزنه .. حفرة ضيقة يطوى فيها جسده .. ثم تمضى الأيام وهو فى صمته البارد المتعفن ومحمد يصول ويجول، ويحشد البشر تحت لوائه، ويتردد اسمه فى الآفاق ويمر الناس على قبرى أنا، فيبصقون ويهتفون : « لعنة الله عليك يا ابن أبى »، ويلحقنى العار حيا وميتا .. وأخذ عبد الله يلهب ناقته بعصاه فى انفعال شرس، لكأنه يريد أن يسبق الأحداث والأيام، يجب أن يسبق الموت ويتحدى الضعف والشيخوخة والفشل، إن الإصرار والمغامرة تصنعان الرجال وهو يشعر- برغم ضعفه وشيخوخته- أنه أقوى من الموت وأقوى من الفشل .. وتذكر كلمات زوجه وهو يعد راحلته للسفر « إلى أين تذهب يا عبد الله؟ إنك لم تعد تقوى على أعباء السفر ووعثائه » فقهقه فى فظاظة، وأخذ يحدث نفسه : « لم أزل قادرا على السير، واحتمال أهوال المعارك . إن بى طاقة من الغيظ تستطيع أن تلهب عزائم الألوف من الرجال .. إننى جيش بأسره .. وغدا تعرف زوجتى .. ويعرف محمد من أكون .. لقد استطاع محمد

أن يلهب خيال الدهماء بأحاديث عذبة عن الجنة والنعيم فتسابقوا إلى الموت فى جنون. هكذا الناس دائما تحركهم عواطفهم، ويغريهم زيف المنى والأحلام. الحقيقة المرة لا يستسيغها أحد، لابد أن تقدم إليهم فى إطار من الخرافة والشعر والإثارة. وأدرك أنه يفتئت على محمد ويظلمه، إن محمدا فى الحقيقة لا يزيف ولا يخدع ومحمد على الرغم من روعة بيانه، وحلو حديثه، وبلاغة منطقه، على الرغم من كل ذلك فإن كلماته تتفق مع العقل، وهل فى الإمكان أن يتسابق الناس خلف عبارات طنانة وخرافات منمقة ويبذلون أرواحهم فى سبيلها؟»

وسرعان ما تذكر عبد الله أن هذا المنحى من التفكير، سيبذر فى نفسه التردد والشك، وسيضعف من عزيمته، ويوهن من إصراره وعناده، فاستبعد بسرعة الأفكار الخطرة، إنه يخاف على نفسه من نفسه.

وبلغ عبد الله بن أبى «خيبر»، وكان فى استقباله «سلام بن مشكم» قائد خيبر، وكنانة بن الربيع وعدد من زعماء اليهود، فاستقبلوه بحفاوة بالغة، وعناق مؤثر، وعبارات ترحيب مألوفة، وتمتم عبد الله فى انفعال: «أرقتنى الدماء التى سفكها محمد ظلما، وآلمنى غدر قريش، إن عويل الأبرياء من بنى قريظة ما زال يطن فى أذنى، لكن الذى يخفف عن أساى هو أننى أرى أمامى رجالا ..»

ثم قال: «هل تسلمتم رسالتى؟»

- «بالطبع، ولهذا وجدتنا فى انتظارك .. كنا نترقب قدومك على أحر من الجمر ..»

وكان اللقاء فى بيت «سلام بن مشكم» حيث التقى عبد الله فى

المساء بعدد من زعماء خيبر يتدارسون الأمر ، ويعدون له عدته ، وفى رأس كل منهم ينتصب شبح محمد كبيرا مسيطرا مهيبا ، ولا يستطيع أحدهم أن يبعده عن ذهنه أو ينساه لحظة ، وابتدرهم عبد الله قائلا : « الأيام تسرع الخطى ، والزمن فى صالحه .»

قال كنانة : « ونحن نقضى النهار ، وجانبا كبيرا من الليل لا نفكر إلا فيه .. محمد .»

قال عبد الله : « إنه يعتزم المسير إلى مكة ..»

قال سلام بن مشكم : « إنه يسير إلى حتفه بظلفه ، لقد بلغنا نبأ ذلك فطربنا له ، وخاصة بعد أن تأكد لنا أن «قريش» لن تدعه يدخل مكة ، فيلحقهم العار والشنار ، والأهم من هذا كله أن «قريش» لبست لبوس الحرب ، وتنادوا للسلاح وأقسموا ألا يدخل عليهم محمد .. ومحمد فى نفس الوقت مصر على الدخول .. ما معنى ذلك أيها الرجال؟ معناه الصدام الأكيد .. إن الغرور سيدفع المسلمين إلى الاعتصام بسيوفهم ، وفى هذا الفناء الكامل لهم ، وخاصة لو تدبرنا أمره ، وطعناه من الخلف ، وداهمنا المدينة فى غيبته »

ابتسم عبد الله فى ثقة ، وقال : « استمعوا إلى جيدا أيها الرجال . إنكم على الرغم من كل ما حدث ما زلتم تجهلون محمدا ، ولا تدركون الهدف من وراء أفكاره العميقة ، وإننى أرقبه عن كثب ، وألاحظ سلوكه وأوامره لرجاله ، وحكمه على الأشياء صغيرها وكبيرها ، وهو لا يقدم على شىء إلا بعد تفكير دقيق ، والاستعداد لكل طارىء .. هل تعتقدون أن محمدا يغامر - بكل بساطة - بمستقبله ورجاله فى معركة غير متكافئة وغير مضمونة النتائج؟ »

ردوا جميعا بصوت يكاد يكون واحدا : « إنه أشد حرصا مما نتصور .»

- « إذن فمن العسير أن نقتنع بأنه خارج للحرب، إن معه أربعمائة وألف من الرجال، وليس معهم سوى السيوف فى أغمادها، وعدد من الهدى لنحرها، لقد أشاع فى كل الأنحاء أنه لم يخرج لحرب، وإنما خرج لأداء الحج مثله مثل أبناء العرب فى كل مكان .. إنه لا يبغى سوى السلام والمحبة والسماح له بتأدية الشعائر، فلو انقضت عليه «قريش» للامها العرب وعابوها، بل لن تجد «قريش» من يشاركها هذا الإثم، وعلى أسوأ الفروض، لو قامت معركة ما بين المسلمين وقريش، فإن فى مكة مسلمين أخفياء يشكلون حماية لمحمد، ويستطيعون أن يغيروا من نتيجتها لصالح صاحب الرسالة. وفى مكة أيها الرجال- عدا المسلمين- أقارب وأصهار للمهاجرين والأنصار .. ولو تمادينا فى تصوراتنا لحدوث معركة، فإن محمدا قادر على أن ينسحب بقواته عند الخطر، وينقذها من فناء كما حدث قبل ذلك .. وهل نسيتم أن غير المسلمين قد اشترك فى الحج مع محمد حيث دعا جميع القبائل المجاورة للمدينة على اختلاف عقائدها للخروج معه؟ »

كان اليهود يستمعون إلى حديث عبد الله فى اهتمام بالغ، ويستوعبون كل كلمة يقولها، ويبدو على وجوههم الإعجاب الشديد لحسن فهمه للأمور، واستنباطاته لمجريات الحوادث. وبينما هم مندمجون فى التفكير، واستعادة ما قاله عبد الله، إذ فتح باب الحجرة عنوة، ودخلت امرأة شبه ملثمة، وقالت: « لابد أن أشارككم فى هذا الجتماع الخطير .. إن اليهود اكتووا بنار المذلة والعذاب، رجالا ونساء، وشيبا وشبانا ..»

انتفض سلام بن مشكم واقفا، وصاح: « لا مكان للنساء هنا

يا زينب بنت الحارث .. وعندما يعجز الرجال عن تدارك الخطر الداهم، أو ينوءون بثقل المسئولية، فلتحضر النساء ..»

لكنها لم تبد اهتماما يذكر باعتراض زوجها سلام بن مشكم، وجلست في مكان قصي وهي تقول: « بل سأبقى مهما كان الأمر ..»

فتدخل عبد الله بن أبي قائلا: « دعوها، فليس في حضورها من بأس ..»

وعاد الرجال إلى حديثهم الهام وقال كنانة: « إن الأمر أعقد مما كنت أتصور، لم يتبادر إلى ذهني سوى أن «قريش» ستشهر سيوفها في وجه محمد، وترده جريحا مهزوما، لكنني أعتقد الآن يا عبد الله إنك قد أصبت كبد الحقيقة »

وقال سلام بن مشكم: « إن محمدا في معاركه دائما كان يلجأ إلى موقع حصين يحميه، أو جبل يستند إليه، أو حيلة بارعة يضرب بها خصمه، أما أن يدفع رجاله بعيدا عن المدينة دون أن يكون لديه السلاح الكافي والعدد الكافي من الرجال، فهذا أمر غريب غاية الغرابة .. إنني بدأت أشك في أن خيانة كبرى سترتكب داخل مكة .. إن أبا سفيان وزعماء مكة سيضربون من الخلف، وإلا فكيف تتصورون أن محمدا يواجه مكة بأسرها بهذه الحفنة من الرجال؟ »

عاد عبد الله يبتسم من جديد ويقول: « ليس لدي ما أضيفه، لقد قلت ما أعتقد أنه عين الصواب، الاحتمالات التي أمامنا، هي: إما أن تسمح «قريش» له بزيارة البيت الحرام، وهذا قد يؤدي إلى تخفيف حدة العداء القائم بينهما، وإما أن يعود محمد بخفي حنين، ومن ثم لا تكاد فترة تمر إلا ويهب محمد لفتح الطريق إلى

الكعبة عنوة ، ويحتدم القتال من جديد وأمام هذه الظروف لابد من السير ، فى طريق الشهيد السىء الحظ «حيى» بن أخطب ..»

قالت زينب زوجة سلام بن مشكم سيدة قومها : « أو تعتقد يا ابن أبى أن فى الإمكان حشد غطفان وقريش والأحزاب من جديد ، بعد الفشل الذريع الذى منينا به؟ »

قال عبد الله : « ولم لا يا بنت الحارث؟ إن نار الحقد ضد محمد لم تزل محتدمة الأوار فى قلوب الرجال ، بل إن الفشل قد زادها اشتعالا ..»

قالت زينب دون أن ترفع النقاب عن وجهها ، ودون أن يدرك أحد ما يرتسم على وجهها من انفعالات حاقدة : « إن أقصر طريق هو قتل محمد ..»

قال عبد الله بن أبى : « هذا ما فكرنا فيه قبل ذلك .. حاولت ذلك بنو النضير ، ولكن عمرو بن جحش فشل ، وأنزلوا به العقاب الرادع .. وقتلوه ..»

قالت زينب : « إن الفشل مرة لا يعنى التوقف عن المحاولة ..»

وقامت ضجة تحتج على رأيها الساذج ، فلوح عبد الله بيده قائلا : « دعوها ، ما التقينا هنا فى خيبر يا حلفائى المخلصين إلا لنتداول الرأى نقلبه على جميع جوانبه ، ولن نخسر شيئا .»

– « لم لا تبعثون إليه برجل يعلن إسلامه ، ثم يدس له السم فى الطعام؟ فإن نجح رسولنا فقد أغنانا السم عن جيش بأسره . وإن فشل فلن نخسر إلا واحدا ..»

قال كنانة بن الربيع : « أيها الصديق الوفى عبد الله بن أبى . لقد عاشرناك ، وراقبنا سلوكك إبان الصراع الدامى مع محمد فلم نجد فيك إلا الوفاء والمروءة ، ولن ننسى فضلك يوم أن أنقذتنا من

سيوف محمد فى حصار « بنى النضير » يوم هربنا بجلدنا ومالنا .. نعم الأخ أنت !! إنك مثال رجل المبدأ والعقيدة ، لا تحيد عن فكرك قيد أنملة ، وتحملت فى سبيل ذلك ما تحملت .. وإن رجالا هذا شأنهم لواصلون إلى النصر مهما كانت التضحيات ، ومهما طال الزمن .. وأمام هذا الود القائم فإننى أزف إليك بشرى سوف يطرب لها قلبك ، وتطيب بها نفسك ، إن غطفان وافقت مبدئيا على أن يضمنا وإياها حلف وثيق كى ننهض لحرب محمد ، ونحن الآن فى طور الإعداد والتجهيز ، وعندما يأتى الموعد المضروب فسوف ترى بعينيك مصارع الأعداء ، عند ذاك تجف الدموع على شهداء قريظة ويعود الحق إلى نصابه ، ويعود إليك حقك وتاجك المسلوب .»

وسادت فترة صمت . قال سلام بن مشكم بعدها : « غير أن مباحثاتنا مع «قريش» لم تصل إلى نتيجة بعد .»

ابتسم عبد الله فى دهاء وقال : « أو تظن أن أمر حديثكم مع غطفان يخفى على .. لقد مهدت لذلك ما استطعت وبعثت برجالى إلى هناك ، ثم إن ثقتى الكبرى ما زالت مقصورة على «قريش» هى الأخرى .»

والتفت إلى زينب قائلا . « ويجب ألا ننسى وجهة نظر زينب ، فإن طعنة فى الظلام أو لقمة سائغة محشوة بالسم قد تمهد السبل لزحف شامل لتطهير الأرض من سلطان محمد .»

قالت زينب فى حماس : « لا فض فوك .. نحن النساء نقدم جواهرنا ومالنا وكل ما نملك حتى لا نصبح يوما فى عداد السبايا . إننى كلما تصورت أيها الرجال أنه قد يجرى علينا ما جرى على بنى قينقاع وقريظة وبنى النضير ، وقد تصبح زينب بنت الحارث

زوجة ابن مشكم، وصفية بنت «حيى» زوجة كنانة ضمن السبايا. كلما تذكرت ذلك دارت بى الأرض وأصبح مذاق الحياة فى فمى كالعلقم، وأية حياة يحلو مذاقها بعد ذلك؟ فالبدار البدار أيها الرجال قبل أن نجثو على أقدام محمد ونعفر جباهنا العالية بتراب نعليه، وقبل أن يصبح نساؤكم إماء لزوجات محمد، وخادمات للأنصار والمهاجرين.»

وابتلعت ريقها ثم قالت: «لم تعد المسألة مسألة صراع بين دينين فحسب، بل هى مسألة الكرامة قبل كل شيء. فذودوا عن نسائكم وكرامتكم ولو تخضبت الأرض بدمائكم جميعا، فلا قيمة للحياة مع الذل والهوان.»

شعر عبد الله بن أبى بما يشبه الدوار. أين زينب الشجاعة من زوجه الغادرة التى استعدتها كلمات محمد وقهرتها، فوقفت تتحداه فى تبجح، وتنال من أفكاره الرائعة؟

وتمتم عبد الله وهو يرمق زينب بنظرات الإعجاب: «نعم الزوجات أنت !!»



٦

قالت زينب بنت الحارث لزوجها سلام بن مشكم : « ما استشعرت العجز فى حياتى كما أستشعره الآن »

قال زوجها : « ويحك يا امرأة !! هذا كلام لا تقوله زوجة سلام ، فأنا فارس خيبر . قائد جندها ، وأنا أملك القوة والمال والسلطان اليهودى ورائى . ماذا بعد ذلك؟ »

قالت : « كل هذا ليس له أدنى قيمة ما دام محمد على ظهر الأرض .»

– « أو تسمين التانى والصبر عجزا .»

– « بل جبنا رخيصا .»

قهقه فى ثقة وقال : « النساء متعجلات عاطفيات .»

– « أريد أن أشرب من دمه ، وألوك كبده ، كما فعلت هند بحمزة بن عبد المطلب .»

– « ولم تستبعدين ذلك؟ »

شردت بنظراتها الخائفة إلى بعيد وقالت : « لقد فاوضته مكة مفاوضة الند بالند ، وهذا كسب كبير . حققه محمد ، واتفقوا على هدنة طويلة ، وسمح للمسلمين بدخول مكة العام القادم لزيارة البيت الحرام .»

ثم التفتت إلى زوجها قائلة فى حدة : « أتدرى معنى هذه الهدنة! »

– « أعرف .. لكى يتفرغ لنا .»

– « فماذا تنتظرون إذن؟ »

- « كلما زاد انتشاء محمد بالنصر واتسع نفوذه، ازدادت المخاطر إحاطة به .. أتفهمين؟ الانتصارات الصغيرة لا تلفت النظر أما الآن وقد علا نجم محمد، وازداد المؤمنون به، فمعنى ذلك الإسراع فى النهوض إليه، والقضاء عليه قضاء تاما . تتسائلين كيف؟ لقد جرت بيننا وبين الروم اتصالات اتصالات، و« هرقل » أخذ يقتنع بخطورته على دينه وعلى ملكه .. إن هرقل لا يطمع فى هذه الجزيرة الجرداء، فهى فقيرة مقفرة، لكن عندما يدرك أن خطرا يتهدده فلن يتوانى لحظة عن حشد جزء من جيشه لدفن محمد ودعوته فى تلك الأرض القاسية .. إن أمرا كهذا لا يعرفه محمد ولا يفكر فيه، وجنود الرومان لديهم القوة والمنعة ورصيد لا ينفذ من الرجال والمؤن .»

قالت زينب فى فرح غامر : « أحق ما تقول؟ »

- « تلك آخر جولة نقوم بها ولا يصح أن نتردى فى الخطأ الذى تردى فيه بنو قريظة وبنو النضير وغطفان، غطفان ستاتى يا امرأة . ومكة أيضا لن تتوانى عن نقض معاهدتها الجديدة عندما يجد الجد لتشفى أحقادها وتأخذ بثأرها .»

نظرت إلى السماء بوجه مشرق وعينين ضاحكتين وهمست: « يا لها من رؤية جميلة .. الرومان .. جنود بنى الأصفر .. صناديد خيبر .. آساد غطفان .. ها ها .. ها .. لسوف يفر المسلمون أمام هؤلاء كالفئران المذعورة .»

واتسع فمها عن ابتسامة خبيثة وقالت : « وكل ما أطلبه منك يا زوجى العزيز، أن تختار لى واحدة من زوجات محمد ضمن سباياك، ولتكن « عائشة بنت أبى بكر » ها ها ها . أم المؤمنين . سيكون شيئا رائعا أن تقوم على خدمتى زوجة نبى . لقد وعد كنانة

بن الربيع زوجته صفية بأن يهيدها غداة النصر رأس محمد .. حسنا . لن تستمتع صفية بذلك غير وقت قصير .. أما أنا فسيحلو لى إذلال عائشة أبد الدهر ، عندئذ يشفى غليلى ، وتهدأ روحى ، ويموت شعور العجز القاتل الذى يعبث بأمنى وهنائى .»

وظلت زينب تثرثر بينما استغرق زوجها فى تفكير عميق .

وأخذت تقول : « إلى الآن لا أكاد أصدق ما يجرى؟ هؤلاء العرب أمرهم جد عجيب ، لقد كانوا دائما ضحايا الفوضى والجهل والغرور ، فيغامرون فى حماقة ، ويقيمون المعارك لأتفه الأسباب لا يربطهم معنى كبير ، ولا ينسقهم تنظيم محكم ويتغنون بأيامهم التافهة ، آلاف يموتون من أجل ناقة . أو هجاء بيت من الشعر ، أو من أجل عرض امرأة ، ونحن نسخر ونحرض . ونجنى من وراء حماقاتهم الثمار اليانعة والمال والمجد والسلطان .. ماذا جرى؟ لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أن يتوحد هؤلاء ، وأن ينصاعوا لشرائع وتقاليد جديدة تنظم الزواج والإرث والعلاقات العامة ، ويكون لهم مبادىء كبرى يتفانون فى سبيلها ، واليوم أرى محمدا وحوله طراز غريب من الناس . لا غرور . لا فوضى لا تهور . ويفكرون ويخططون وينتصرون على تدابير اليهود ، وذكائهم الخارق . إننى لا أكاد أرى تفسيرا لذلك ، أتستطيع أن تشرح لى الأمر يا سلام بن مشكم؟ »

قال : « هه . ماذا؟ »

– « إنك فى واد آخر .»

– « أعرف .. أعدك بأن تكون عائشة ضمن سباياك .»

وشردت بضع لحظات ثم قالت : « عندى فكرة ..»

– « ماذا؟ »

- « لن توافق عليها ..»

- « اشرحى لى الأمر أولا ..»

- « حسنا يا سلام .. إننى امرأة، امرأة حاقدة وأفكارى تبدو مغرقة فى الخيال، والحماقة أحيانا .. ليكن، فلن أخسر شيئا إذا عرضت عليك خطتى، ماذا يقول الناس عنى لو فررت من زوجى، وغادرت خيبر خفية، وامتلأت بالأراجيف والشائعات .»

قال فى دهشة : « ماذا؟ »

- « صبرا يا سلام .. سيكون لذلك دوى هائل، زوجة فارس خيبر وقائدها الهمام هربت إلى المدينة، وقصدت محمدا رسول الله لتعتنق الإسلام ..»

هتف مستغربا : « الإسلام؟ »

- « أجل .. لقد مال إليه قلبى، وهدانى الله، فتركت ورائى المال والولد والزوج، والدنيا بأسرها، وانطلقت إلى الله؛ إلى طريق الحق .. إن حدثا كهذا سوف يهز المدينة هزا عنيفا لسوف أدخل يثرب فى موكب رائع، والتهليلات والتكبيرات تشق عنان السماء .. ومحمد يبتسم لى، ويدعو لى بالتوفيق والسعادة ويتزوجنى .»

توترت أعصاب سلام، وشحب وجهه، وانتفض واقفا وهو يزمجر : « بماذا تهذين يا بنت الحارث؟ إنها دعابة سخيفة .»

وأخذت زينب تقهقه حتى كادت تستلقى على ظهرها من الضحك، وأخذت تقول وهى تجفف بللا أصاب عينيها من شدة الضحك : « أتغار؟ »

- « بل أخاف على عقلك من التلف .. تارة تريدين عائشة ضمن السبايا، وتارة أخرى تريدين أن تعتنقى الإسلام .»

وبدا الجد على وجهها، ثم قالت: « ولسوف يحوطنى محمد وصحابته بالجلال والإكبار. إنهم يفرحون بمن أتى مسلما أكثر من فرحهم بحيازة كنوز الدنيا، وأؤكد لك أن محمدا سوف يتزوجنى، فسأكون وحيدة مسكينة.. مضحية بكل شىء، وقد يقتلنى اليهود.. لابد أنه سيتزوجنى، أو على الأقل يقربنى منه، وفى هذا الوقت أستطيع أن أدس له السم أو أجهز عليه بخنجرى.»

زايله توتره وابتسم. رماها بنظرة متعالية، وتمتم: « لسنا فى حاجة لهذا الشقاء كله، إن خيبر وحدها قادرة على سحق محمد وجنده.. ليس هناك بشر معصوم من الهزيمة؟ الأنبياء أحيانا يهزمون، بل ويقتلون.. القوة الماكرة تستطيع أن تغير وجه الأرض.. استمعى إلىّ جيدا.. أنا لا أعرف شيئا اسمه المسلمات، وليس هناك قيم ثابتة، حتى فى ديننا. ولعل سر نجاحنا.. أننا نتغير ونغير نصوص ديننا مع الزمن.»

قالت فى ضيق: « لا أكاد أفهم شيئا مما تقول، حسبتك ستطرب لفكرتى.»

– « فكرتك رائعة، لكن ليس هذا وقتها، أنسب وقت لها يوم أن تندحر قوانا، ونعجز عن هدم الكيان الإسلامى.. عندئذ نتحول إلى سوس. أجل سوس ينخر فى ذلك الكيان حتى ينقض على أهله.. لن نستسلم أو نموت، وأمامنا الأبد ممتد حتى نهاية الزمان، ومالا نحققه اليوم نحققه غدا.»

زمجرت فى حدة: « لا أجد من يفهمنى.. ما أتعسنى! لسوف أتصرف فى النهاية وحدى.»

– « لو فعلت شيئا من ذلك دون موافقتى لسحقت رأسك هذه.»

ورماها بنظرة حادة مخيفة.

فتساقطت الدموع من عينيها وهى تقول : « محمد أزال دولتنا ، وقتل الأحبة من قومنا . وعرى نوايانا ، وأفسد مخططاتنا ، أهناك عار أبشع من هذا العار ؟ »

قال سلام فى ضيق : « هذا كلام ممل ، أسمعه للمرة الألف ، فلتتركى الرجال يقومون بواجبهم .»

– « دائما تصغر من شأنى ، وتسفه من إرادتى .»

– « لأن حقدك يعميك عن التبصر والتأنى وإدراك الحقائق .»

وفجأة صمتت ، لقد وثب إلى ذهنها صورته .

واحد من العبيد فى منزل زوجها .. هادىء ، أسود السحنة يرمقها دائما بنظرات صارمة قوية ، يمتزج فيها الاشتهاء بالعنف والصمت الصاخب .. إنها تخافه ، وتفهمه أيضا « فهد » .. أجل « فهد » .. لماذا لا تتكرر قصة وحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عتبة بأى ثمن؟

– « فهد أيها التعس المسكين . لتذهب إلى البستان وتحضر لى بعض الفاكهة ..»

النظرات القوية الصارمة تنبعث من عينيه ، وعوده السمهرى ينتصب فى إباء وشمم يتنافى مع خضوع العبيد ، وصمته المريب يثيرها ، ويبعث الرجفة فى جسدها .. ويحضر « فهد » الفاكهة ، ويضعها أمامها فى صمت وينصرف ..

– « فهد .. أيها الفتى الطيب .. إنك جدير بكل إعزاز وتكريم .. حسنا .. فلتذهب وتستدعى لى تاجر الذهب .. إننى أريد سوارا رائعا .»

وأخذت الإماء يتبادلن النظرات الحائرة ، ماذا جرى لمولاتنا؟

إنها لا تدعو إلا فهدا ، ولا تتحدث إلا عنه ، تكيل له الثناء ، لم يعد يبقى سوى أن تطلب منه أن يجهز لها حمامها وثيابها الحريرية .

– « فهد .. إنك وقعت فى أسر العبودية ظلما ، ما أكثر العبيد الذين يفوقون السادة سمتا وعقلا وهيبة !! »

قالت زينب هذه الكلمات ، وسرعان ما رقت نظرات « فهد » ، وبدأ الخجل على وجهه ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وطأطأ رأسه فى حزن ، وهو يقول : « أتسخرين منى يا مولاتى؟ »

– « لو كنت أصنع أقدار الناس لجعلت منك سيدا يشار إليه بالبنان ..»

– « لكنه قدرى يا مولاتى ..»

صرخت فى حدة : « أيها العاجز ..»

رفع إليها عينين دهشتين وقال : « وماذا أفعل؟ »

ضحكت فى خلاعة وقالت : « تحلم بالحرية ..»

– « الأحلام تزيدنى حزنا وتعاسة .»

– « فلتصنع لك عالما من الخيال .. تصور نفسك سيدا مهيبا . عش هذا الوهم .. أدمن التفكير فيه .. تصرف على أساسه .»

ضحك فى أسى وقال : « لو نفذت ما تقولين لكنت أنت يا مولاتى أول من يشوى جسدى بالسياط ، ويحرقنى بالنار ..»

قالت فى انفعال : « أنت إنسان يا فهد ..»

– « لكن لم يكن لى فى الأمر حيلة . حتى اسمى غيرتموه أكثر من مرة .. أنا لا شىء .. أنتم تحزنون من أجل ناقة نفقت ، أو بعير ضل .. أو شاه أكلها ذئب .. أما أنا ..»

– « أنت إنسان .. ألم تسمع؟ »

نظر إلى وجهها الممتلىء ، وعينيها الواسعتين القلقتين ،

وشعرها الفاحم الدقيق الشهى، وتمتم: « الحقيقة التى تملأ عالمى هى أننى حرمت من نعيم الحياة كله.. الحرمان فظيع.. فظيع.. حتى مجرد التعبير عما فى قلبى لا أجرؤ على الجهر به.. أتدركين ذلك؟ مستحيل.. إنك لم تجربى هذا العناء القاسى..»

قالت وشفتها ترتجف: « تكلم. قل ما تشاء.. أريد أن أعرف ما يعتمل فى قلبك..»

– « إنه الموت..»

– « أعدك بشرفى..»

– « ألن تشى بى؟ »

– « لقد وعدتك.. بشرفى..»

ودار بنظراته فى جنبات الحجرة، ثم عاد وركز نظراته القوية الصارمة على عينيها وقال فى هدوء والعرق يتفصد من جبينه الأسمر..

– « إننى أحبك..»

انتفضت.. وتصنعت الدهشة.. وأخذت تعض على شفتيها، وصرخت: « ماذا؟ »

– « كنت واثقا من ذلك.. السياط والنار، بل الموت، لأنى عبد، ولأنك زوجة سلام بن مشكم..»

هدرت: « أيها المنحط.. القذر..»

– « أجل.. لو قالها أحد السادة لقوبلت بابتسامة.. أو باكفهرار.. ولا شىء غيرهما، لكنها منى انحطاط..»

– « انصرف فورا..»

– « إنها النهاية.. ما أشد غبائى.. أكان ما حدث اختبارًا؟ يا له من اختبار مميت! »

– « انصرف أيها النذل .»

– « لكن الانصراف معناه التسليم بالموت .. إننى قادم إليك، لسوف أقبل قدميك وحذاءك، بل وألثم التراب الذى تطأينه .. وأذرف دموع الندم .. لعلك ترحمين عبدا تعسا مثلى، وتبقين على حياتى ..»

وخطا نحوها فى خشوع، وكأنه يسير فى موكب جنائزى، وانحنى صوب قدميها، فأمسكت بساعده وسددت إليه نظرات شرهة، ثم تشبثت به، وضمته إليها فى جنون.

– « ماذا جرى يا مولاتى؟ »

– « الحب لا يعرف الحواجز .. كنت أفهم نظراتك .. لطالما عذبتنى .. وذهلت حينما سمعتك تتحدث عن الحب .. ذهلت وسعدت فى نفس الوقت .. أحببتك واحتقرتك ..»

قال وجسده ينتفض كله: « كيف؟ »

– « حسبتك تتحدث عن الحرية ..»

– « حبك فى قلبى أقوى وأعظم من كل شىء ..»

– « لم تزل عبدا رائعا .. كلمات لم أسمعها من سلام بن مشكم طول حياتى .. كنت على استعداد لأن أهبه عمرى لو قالها ..»

قال، وقد تدلت ساقاه، واضطربت أنفاسه: « أحيانا تبدو الحرية وكأنها الحب، وأحيانا هى المال، وأحيانا أخرى تبدو نوعا من الاطمئنان النفسى الغريب، برغم القيود .. أنا لا أفهم حقيقة ما الحرية .. كل ما أفهمه عن الحرية هو أن أعبر عن أشواق ذاتى ..»

مرت بيدها الناعمة على لحيته الخشنة وقالت: « أيها الأنانى .. لكم أحبك .»

– « لا أعرف كيف أتكلم ..»

– « أنت هكذا شيء جميل ..»

وفجأة وبدون مقدمات قالت : « أتسمع عن وحشى بن حرب؟ »

– « من وحشى هذا؟ »

– « فتى من عبيد مكة .. قتل حمزة عم الرسول ونال حريته ثمنا لبطولته ..»

– « أوه .. لقد سمعت عنه ..»

– « لو أردت لكنت مثله .»

– « سيدتى إننى أرغب عن مثل هذه الأمور .»

صرخت محتدة . إليك عنى .. إننى أكره الجبناء ..

– « ماذا أفعل؟ »

– « يجب أن تكون حرا ..»

– « كيف؟ »

– « بأى ثمن .»

– « حبى الصامت العاجز لك شل تفكيرى عن كل شيء .. لم أكن أفكر إلا فيك .. النظرات التى اختلسها إليك .. كانت زاد أحلامى .. وشفاء لجدب روحى .. لم يكن لدى وقت للتفكير فى شيء آخر .»

– « أريد رجلا ..»

– « وأنا؟ »

– « رجلا متمردا حرا .. واسع الآمال .»

– « إننى رهن مشيئتك يا مولاتى .»

ومرت أيام قلائل ، عاشها فهد وكأنه يتسامى فى دنيا سحرية مليئة بالخضرة والزهور والينابيع الدفاقة ، وزينب تعطيه بمقدار ، لا تتركه يظمأ حتى يقتله الظمأ ، ولا تدعه ينهل حتى يرتوى ،

والعجيب فى الأمر أن زينب قد طرأ عليها بعض التغيير ، لم تعد تأنس كثيرا لزوجها ، بل إن أسعد أوقاتها هى الأوقات التى يقضيها خارج البيت ، ولم تعد عيناها ترى العبيد والإماء إلا فهدا .. وذهلت زينب لهذه التغيرات ، أيمكن أن تحب عبدا ذليلا حقيرا كهذا؟! مستحيل ، لكن الحقيقة تصرخ فى تحد ، إنها تسعد لوجوده ، وتبش لمقدمه ، وتحلم أحلاما فى غاية الحماقة والانحراف .. أية كارثة حلت؟!

وذات مساء قالت له : « أى فهد العزيز .. إن سلام بن مشكم قد سافر اليوم إلى مكان بعيد .. لعله قصد أرض غطفان .. قد يعود بعد خمسة أيام أو أكثر .. وفى بستاننا الجميل يا فهد عش رائع .. بعيد عن الأنظار .. يكفى رجلا وامرأة .. وعندما يغيب الهلال ستجدنى هناك أنا أكره الانتظار .. وحذار أن تهمس لأحد بشىء وإلا فقدت حياتك ..»

مرت ليلة البستان ..

آه .. كل شىء يوشك أن يتهدم .. يا ليل العربدة المثير .. كل شىء تحركه الرغبات .. جميعهم جياع .. الويل لو عرف ابن مشكم الحقيقة .. حسنا إننى أبيع نفسى للشيطان لكى أظفر بمحمد .. وخيل إليها أن قهقهة ساخرة تنطلق من بعيد .. ماذا؟ أنا لا أكذب أو أخدع نفسى ، لم أسلم نفسى للعبد إلا لغاية كبرى .. وتلفتت حولها فى توجس .. لا أحد .. أعترف كنت أشتهيه ، لقد ضربت عصفورين بحجر واحد ، أطفأت ظمأى .. ودبرت الجريمة الكبرى التى ستهز العرب جميعا .. لقد اتفقت مع فهد أن يذهب ليغتال محمدا .. ثم يعود .. ونهبه الحرية .. ونشترك فى قتل سلام زوجى ، وبعد ذلك نهرب ونتزوج ، لن أنفذ الشطر الثانى من الاتفاق ، لن أقتل زوجى

آه .. وقضيت مع الداعر بن الداعرة فى أحضان البستان ليلة لا تنسى .. وامصيبتى !! سلمت نفسى له ، وأسلم نفسه لى .. وماذا فى ذلك ؟! خيبر كلها تحترق بالإثم والنفاق والأكاذيب .. الخطايا تتمرغ فوق البساتين والدور والطرقات .. الحياة رغبات .. كل ما نملك فى خدمة الرغبات المتأججة فى الصدور .

وارتمت زينب بنت الحارث على فراشها باكية ، وأخذت تشهق بصوت مسموع ، وعندما تجمع حولها من بالبيت فى ذعر قالت : « لا أريد أن أرى أحدا .»

قالت فتاة من الإماء .. إن مولاى قد عاد ..

رفعت رأسها فى دهشة ، الدموع لم تزل فى عينيها : « كيف ؟! »

قطع رحلته .. بلغته أنباء عن حشد كبير للمسلمين غير معلوم الوجه ..

ودارت بنظراتها هنا وهناك .. فرأت فهدا ينزوى فى ركن بعيد فصاحت فى وقاحة وهى تجفف دموعها : « فهد ..»

– « مولاتى ..»

– « أخبر مولاك بأننى أريده على عجل ..»

فهرول مرتجف الأوصال ، شاحب الوجه ، ورأسه يدور ، لا يكاد يرى شيئا أمامه ، واصطدم بقادم فى الطريق ، وعندما فتح عينيه جيدا صاح فى رعب .

– « مولاى .. مولاتى تريدك ..»

قال سلام فى هدوء : « ماذا جرى !! »

ومضى فى طريقه ثابت الخطى .



٧

قال سلام بن مشكم لأصحاب لأصحابه من رجالات خيبر : « أيها الرجال .. إن الحرب واقعة بيننا وبين محمد لامحالة ، ولو آثر محمد السلم وأبدى رغبة فى المهادنة فلن نقبل .. إن الأمور واضحة لى تمام الوضوح ، فنحن المعقل الأخير لبنى إسرائيل فى هذه الجزيرة ، ومحمد يدرك أن عداءنا له أشد من عداء قريش .. ونحن أهل كتاب لن نفرط فيه مهما كان الأمر ، كلانا يتحفز للآخر ، سيبطش محمد بنا إن لم نبطش به .. وأرى أن نخرج إلى « يثرب » ومعنا غطفان ويهود وادى القرى ويهود فدك وتيماء .. سيكون النصر لنا .. لقد علمت العرب أننا أقوى شأنا وبأسا . وأكثر مالا وعدة وعددا ..»

وكان بين الجالسين يهودى يدعى الحجاج بن علاط ، وهو تاجر ناجح . له تجارات واسعة فى أنحاء الجزيرة ، وخاصة مكة ، قال الحجاج : « إننى أخالفك الرأى ، وليس وراء الحرب إلا الخراب واليتم والثارات التى لا تموت .. ومحمد لم يغدر فى عهد من عهوده قط ، وأرى أن نعقد معه معاهدة صلح لا ننقضها ما حيينا ، فننال السلم ، وننعم بالرخاء ، ونخلى بينه وبين العرب ، فإن أصابوه بلغنا ما نصبو إليه ، وإن أصابهم فلن نخسر شيئا ..»

قال كنانة بن الربيع وكان مشايعا لسلام بن مشكم : « السؤال الأول الذى يجب أن نطرحه هو .. من الأقوى؟ نحن أم محمد؟ فإن كان محمد أقوى شكيمة واستعدادا منا عقدنا معه الاتفاق . حتى تحين الفرصة للقضاء عليه وإن كنا الأقوى ، انطلقنا إلى يثرب دون

إبطاء وحطمنا سلطانه ودينه .. وأعتقد أن القوة لنا .. هل فيكم من يخالفي الرأي؟ »

قال سلام : « أنا معك .»

وقال الحجاج بن علاط : « إن عوامل أخرى تتدخل فى الحروب .. هل نسيتم ما حدث يوم الأحزاب ، كانت القوة لنا .. لكن جدت أمور وعوامل أخرى لم تكن فى الحسبان ، إن مقاييس القوة ليست بعدد الرجال .. هناك إرادة الله .. وإرادة الرجال ..»

قال سلام : « إرادة رجالنا أقوى .. وإرادة الله فى صفنا ..»

– « الله فى صفنا؟ »

– « أجل يا حجاج .. وإلا كنت ضعيف الإيمان، زائغ العقيدة ..»

– « كل طرف يا سلام يعتقد أنه على حق ..»

– « لا يهمنى الآخرون .. لو لم أؤمن أعمق الإيمان بدينى لاتبعت محمدا ..»

وكانت غالبية الآراء فى صف سلام بن مشكم ، اتفقوا على أن يعدوا العدة لهجوم مفاجيء ساحق على « يثرب » وتبادلا الوعود والمواثيق مع غطفان ، أما الاستعانة بالرومان فلم يكن الوقت كافيا لتنفيذها ، فالانتظار معناه تعريض « خيبر » لخطر الغزو ، وعندما عاد سلام إلى زوجه ، قال وهو يخلع عنه ملابسه : « لقد جد الجد ، سنذهب لضرب محمد فى الصميم .»

قالت فى طرب : « وافرحتاه! .. هذا يوم المنى .. يوم الثأر ..»

ثم أقبلت نحوه وأمسكت بيده وقبلتها ، واحتضنته فى حب قائلة : « لكن حذار أن تضحى بنفسك يا سلام .. الحياة بدونك عذاب أبدى »

ابتسم فى غرور : « سأعود إليك منتصرا، ومعى عشرة من السبايا بينهن عائشة .»

قال وهى تقهقه فى شماتة : « أم المؤمنين ..»

– « أجل .. ونثأر لأحزان المساكين من بنى قينقاع والنضير وقريظة ..»

وشردت بضع لحظات، وتمتمت فى انفعال: « أتحبنى يا سلام؟ »

التفت إليها فى دهشة وقال: « ماذا تقولين؟ إن أمرك لجد عجيب !، أوتشكين فى ذلك؟ ..»

– « لا .. ولكنى أريد أن أسمع كلمة الحب تخرج من بين شفتيك .. ستكون وساما أعلقه على قلبى، وأتيه به فخرا بين نساء خيبر ..»

قال وهو يلقى بجسده المتعب فوق حشية بجواره: « الحب ليس كلمة تقال ..»

– « فماذا يكون إذن؟ »

– « إنه شىء تحسين به ولا تسمعينه. تدركينه فى اللمسات والنظرات والتصرفات .. ألم تفهمى ذلك طوال السنين الفائتة؟ »

قالت فى شبه غيبوبة سكرى: « لكن الكلمات حلوة .. إنها تلامس الأذن فتهز كيان المرأة هزا .. لعلها أتفه أدوات التعبير فى نظرك .. لكنى أراها أروع شىء ..»

قهقه فى سخرية وقال: « إن فيك قليلا من جنون وسذاجة .»

ثم استدار إليها مرة أخرى وقال: « لم هذا السؤال فى هذا الوقت بالذات؟ »

- « لا أدرى .. ربما لأنها أوقات عصيبة ، وأنا أخاف عليك من الحرب .. إنها غادرة .»

- « أوه .. فهمت .. شىء أشبه ما يكون بالوداع .. طيبى نفسا يا زوجتى .. لن أموت- سأعود إليك وعلى جبينى غار النصر .. أنا القائد .. وعندما أنظر إلى حصون خيبر ونخيلها وحدائقها الخضراء .. وعزيمة الرجال الأشداء وإمكاناتهم الضخمة ، أؤمن بأن ملكنا لن يزول .»

خيل إليه آنذاك أنها ستندفع إليه، وتضمه إلى صدرها ، وتتشبث به ، وتغرق وجهه بالقبلات ، لكنها ظلت حزينة صامتة ، فقال فى دهشة : « ماذا بك؟ »

- « لا شىء »

- « إننى لا أفهمك .. هل أصابك سوء؟ أنت تخفين شيئا عنى .»

قالت فى ذعر : « ماذا؟ لا شىء »

- « يبدو إن إحدى العرافات قد تنبأت لك بقتلى .. لكن طيبى نفسا إننى أقوى من النبوءات والزعازع ..»

وسادت فترة صمت قالت زينب بعدها : « إننى أعيش المعركة بكل كيانى .»

ضحك سلام قائلا : « لدرجة أنك فكرت فى اعتناق الإسلام ، والذهاب إلى محمد لدس السم له .»

- « لكنك ترفض ..»

- « بالتأكيد ..»

- « وأنا لم أيأس ..»

قال فى اهتمام : « كيف؟ يخيل إلى أنك انتويت تنفيذ ما تفكرين

فيه ، ولعل هذا هو سبب حديثك المفاجيء عن الحب .. وربما فكرت فى اكتشاف أمر وتعريض نفسك للقتل .. الآن فهمت ..»

قالت فى هدوء وقد أحنت رأسها : « لا ..»

– « ماذا إذن؟ »

– « لقد غيرت خطتى .. لسوف أرسل واحدا من العبيد لقتل محمد وسنهبه الحرية إذا ذهب ونفذ ما نريد .. حكاية شبيهة بحكاية وحشى بن حرب قاتل حمزة .. فهل توافق على ذلك؟ »

هز كتفيه فى شيء من الاشمئزاز : « إنها لفكرة رائعة لو تحقق لها النجاح .. لكننى لا أثق فى العبيد ..»

قالت : « كيف؟ »

قال : « إنهم ضعاف النفوس ، تمتلىء قلوبهم بالحقد ، لا يستسيغون التضحية الكبرى من أجل سادتهم ..»

– « بل من أجل حريتهم يا سلام ..»

– « ماذا لو ذهب ذلك العبد ، وعاش إلى جوار محمد ، وسحره حلو حديثه ، ومعسول وعوده ، وابتسامته النفاذة؟ إن محمدا ساحر ، ولا تعجبى إذا جاءتك الأنباء عن خيانة العبد الذليل ، واعتناقه الإسلام ، وتطوعه بإفشاء السر لمحمد ..»

قالت فى ضيق ..

– « أنت تهول فى الأمر .. بعض هؤلاء العبيد قد درجوا على الوفاء والإخلاص النادرين ، ربما يكون بعضهم أشد وفاء من الزوجة لزوجها .. أنا أعرف ذلك ..»

– « ومن سيقوم بذلك؟ »

– « فهد .»

فكر لحظة، وضيق عينيه، وقرب حاجبيه، وقال: « ذلك الذئب الصامت .. إنني لا أحبه .. حسنا ليذهب إلى الجحيم ..»

- « لا تحبه؟ كيف؟ إنه لم يخطىء قط .. ولم يعص لك أولى أمرا .. وقد فاتحته فى الأمر ..»

- « حقا؟ ..»

- « أجل .. وأغدقت عليه من برى، ووعدته بالحرية .. والفتاة التى يختارها للزواج، وعددا من الإبل والأغنام والنخيل ..»

قال دون اكتراث: « ليكن لك ذلك .. حتى لو غدر فلن يكون سوى تابع تافه لمحمد، يمضى فى ذيل الموكب، منتشيا بعطر الكلمات المعسولة التى ينثرها محمد وسط الجميع .. ولكن لا تنسى أن محمدا سيهبه الحرية أيضا .. ومعها تلك الجنة، التى يهرع إليها المسلمون وسط النار والدم والسيوف دون خوف ..»

قالت فى إصرار: « ونحن سنهبه الجنة أيضا .. جنة محمد بعيدة .. دونها الموت والحقب الطويلة والغيب المجهول .. والبشر يريدون جنة قريبة عاجلة .. يريدون المال والجاه والمتعة .. جنة الحقراء .»

قال وهو يتثاءب: « حسنا . افعلى ما شئت .»

وفى الصباح، انصرف سلام إلى وجهاء قومه ليعدوا العدة، ويكملوا الحشد للسير إلى المعركة المرتقبة، وخرجت زينب بنت الحارث من حجرة نومها فوجدت فهد يقف مضطرب النظرات، مرتعد الفرائص، اقتربت منه وقالت: « ماذا بك؟ »

تلفت حواليه فى ذعر وقال: « أحد العبيد قال كلمة خبيثة ..»

- « ماذا؟ »

– « فهمت أنه يعرف شيئا عن علاقتنا الآثمة . لو عرف سيدى لمزقنى إربا .. إربا »

قهقهت فى توتر وقالت : « ولوضعنى فى زيت يغلى ، وجلس يتسلى بمنظرى البشع ..»

– « ما الحل؟ »

– « هذا أمر تافه يا فهد .. أرسل ذلك العبد إلى فورا .. لا مجال للإبطاء الوقت ضيق ..»

وأقبل العبد الذى كشف السر متعثرا فى خطاه ، سددت زينب إليه نظرات قوية تبرق بريقا مخيفا ، فأخذ جسده ينتفض من الرعب ، قالت : « أراك مضطربا .. اجلس عند قدمى هاتين .. إن ساقاى تؤلماننى أريدك أن تدلكهما .»

أقعى العبد ، والعرق يتصبب منه ، ويداه ترتجفان ..

– « أيها المسكين .. خذ هذا الماء البارد لعله يخفف من اضطرابك ..»

وشرب العبد الماء دفعة واحدة ..

– « حسن أيها التعس .. إنك تكثر من الكلام الفارغ دون فائدة .. أنت لا تفهم شيئا عن الحياة .. ليكن .. فلتذهب الآن إلى الحديقة ولتحضر لى بعض الفواكه ، ستجدها لدى البستانى »

ووقف الرجل مبهور الأنفاس ، فصرخت به فى حدة : « اذهب ولا تبطىء ..»

وما أن انصرف حتى أطلقت ضحكة شيطانية عالية ..

وبعد لحظات جاء فهد شاحبا وقال متلعثما .

– « هل توعدته حتى لا يفتح فمه؟ »

قالت وهى ترمقه بنظرات ولهى : « لسوف يغلق فمه إلى الأبد .»

– « كيف؟ »

– « لقد أرسلته إلى البستانى ليحضر لى بعض الفواكه على عجل .. لكنه لن يعود ..»

– « لن يعود؟ »

– « أجل يا فهد الحبيب .. من أجلك أنت لأنك أمتع رجل فى الوجود ، ولن تستطيع قوة أن تفرق بينى وبينك ..»

وتنهدت فى ارتياح وقالت : « لقد سقيته السم ، وعندما يصل إلى البستان ستكون أعضاؤه قد تراخت .. وسيستسلم لنوم طويل .. أبدى . مسكين لسوف يموت دون أن يرى هزيمة محمد .. الغريب أنه سيموت بنفس السم الذى أعددته لمحمد ، إنها منزلة لم يكن يحلم بها هذا المغرور ، لكنى دائما أتصدق على هؤلاء الأغبياء ، حتى بالميتة الحسنة .»

ثم التفتت إلى فهد المذهول الذى دارت به الأرض وصرخت : « وأنت ..»

– « ماذا؟ »

– « لسوف تنتظرنى هذا المساء ، هناك فى نفس المكان .. تصور .. حاول سلام بالأمس أن ينال منى حقه كزوج لكننى تعللت وأبيت .. أصبح مذاق سلام كالعلقم إنه شيء مقيت .. لا أدرى كيف .. هناك فى نفس المكان ، ولا تتأخر لحظة حتى لو اشتعلت الحرب فجأة ، وهناك ستحوم من حولنا روح العبد الآبق الأبله .. ولن يستطيع أن يخترق حاجز الموت .. سيشقى بالغيرة والحرمان حيا وميتا .. والآن انصرف .»

قال وقد طأطأ رأسه : « ولكن سيدى هنا ! »

– « لا شأن لك .. إننى أعرف كيف أدبر شأنى ، ومولاك غارق

فى الغرور حتى أذنيه، إنه لا يتصور أنه كائنا من كان لا يجسر على العبث بشرفه .. إنه عظيم لا يهتم إلا بالعظماء، أما أنا وأنت فأتفه من التفاهة.. العبيد والنساء هنا لامكان لهم سوى الحضيض، لكن ألست معى فى أنه حضيض رائع .. انصرف، أيها الأحمق»

قال وهو يقترب من الباب بظهره: « أمر مولاتى .»



٨

ألم بسلام شيء غير قليل من الحنق حينما علم بموت أحد عبيده، وأخذ يتصرف في ضيق وتوتر، بينما قالت زينب زوجه: « ماذا جرى؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون شاة نفقت، فلا تشغل نفسك بذلك كثيرا .»

قال سلام: « أعرف أنه لا قيمة له، والخسارة فيه تافهة، لكن ميتته عجيبة ومفاجئة، لقد سقط في الطريق دون مقدمات من مرض، وتقيأ .»

قالت: « وماذا في ذلك؟ الموت لا موعد له، ربما تكون قد لدغته حية في الطريق، فلفظ أنفاسه في ثوان .»

– « ولم لا يكون في الأمر سر غامض »

هتفت في خوف: « سر؟ مثل هؤلاء المساكين ليس وراءهم أسرار .»

– « أنا شخصيا لا أعرف شيئا ذا قيمة عن هذا العبد. لكني أحاول أن أجمع بعض المعلومات .»

قالت محتدة: « هون عليك، ولننشغل بكبريات الأمور .»

هز كتفيه في أسف وقال: « ألا يكون ذلك مقدمة وباء؟ لكن ألا يخرج الوباء إلا من بيتي؟ معنى ذلك– إن صح التخمين– إننا قد نموت في أية لحظة .. أليس هذا مزعجا؟ »

هزت رأسها قائلة: « آه فهمت، أنت لا تفكر فيه .. بقدر ما تفكر في مستقبلنا نحن .. أؤكد لك أن مصرعه لا يعدو أن يكون صدفة من جراء لدغة سامة. هذا هو الأرجح .. لدغته حية سامة »

ابتسمت خفية، وتمتمت وهي تلتصق به: « وأي حية! »

فأردف سلام بن مشكم : « حسنا .. لسوف أنصرف إلى كنانة بن الربيع .. إن كابوسا غامضا يضغط على قلبى أريد أن أتخفف من ذلك الوهم . وسط الرجال والأحداث ينسى الإنسان أوهامه الصغيرة .»

قالت فى خبث : « وزوجتك؟ ألا تخفف عنك شيئا كهذا؟ »

– « إن بك وبى من الفتور فى هذه الأيام ما لا يمكن إنكاره .»

– « التفكير فى كبريات الأمور يا سلام يوجب القلق .»

وما أن انصرف عنها ، حتى انقلبت سحنتها ، واكتست نظراتها ببريق حانق مستمر ، كان جسدها ينتفض من الغيظ ، ولا تكف عن الحركة القلقة ، وتجذب خصلات من شعرها وتلامس عنقها ثم تضرب على فخذها ، ولا تقف إلا لتجلس ، ولا تكاد تجلس حتى تهم بالوقوف ، حتى لكأن فى حشيتها أشواك تدمي ، وتمتمت فى غيظ قاتل : « ابن الدنيئة لم يأت بالأمس . جلست أنتظره فى البستان ، بين الصمت والظلام والخوف والرغبة المتقدة ، لكنه لم يأت ها ها ها .. ماذا جرى للدنيا؟! أنا أنتظره ، وأتحرق لرؤياه؟! كيف؟! ألا يعرف من أنا؟! إننى قادرة على أن أسوقه سوقا بالسوط ، وأترع من دمه القذر .»

وصرخت كمجنونة : « فهد .. فهد ، إلى به فورا .»

ودارت بها الأرض ، أشعل الحقد وخيبة الأمل فى جسدها نارا من نوع غريب ، أخذت يداها ترتجفان ، وفتحت عينيها فجأة فوجدته أمامها ، هدرت : « لماذا لم تأت بالأمس؟ »

– « لقد خفت ..»

– « يا ابن اللئيمة ، وكيف يخاف العبيد؟ عندما آمرك لا يصح أن تفكر فى شىء آخر غير الطاعة .»

– « لكنى أخاف سيدى .. لا أستطيع أن أرفع عينى إلى وجهه ، يخيل إلى فى بعض الأوقات أنه قادر على أن يقرأ كل ما يعتمل فى نفسى ، بل يبدو لى أنه على مقدرة كبرى فى قراءة الغيب ، أفزع من نومى على صوته القوى المخيف يهتف بى : أيها الخائن الجبان .»

قهقهت فى جنون ، وهبت واقفة ، واقتربت منه وهى تزمجر : « أنا أقوى من سيدك .»

– « إنك تزيدينى خوفا .»

– « اللعنة عليك وعلى أفكارك .. القوة ليست الشوارب واللحى والسيوف والأصوات الخشنة أيها الغبى .»

– « أمر مولاتى .»

– « لو لم تحضر هذا المساء ، فلن تطلع عليك نور شمس الغد .»

قال وهو ينتفض: « أحبك بكل ما فيك من قسوة ورعود وجنون .»

قهقهت فى رضى : « أنت تجيد اختيار الكلمات ، ولا أظن أن وقاحتك تؤلمنى إنها تثيرنى أكثر وأكثر ، سنحتفل الليلة برحيلك غدًا إلى محمد يجب أن أهبك كل ما تريده منى .. سيكون ذلك هو الزاد فى رحلتك الطويلة إلى يثرب .. إننى أعرف كيف أشحن قلوب الرجال الأشداء بالكرامة والبأس .. لسوف تجد متعة عظيمة وأنت تقضى على حياة أعظم وأخطر رجل فى الجزيرة العربية فى تاريخها الطويل .. وعظائم الأمور ليس لها إلا عظماء الرجال .. أنت عظيم برغم سواد وجهك .. ووضاعة مركزك ، وبعد أيام قلائل سيتغير كل هذا . ستصبح الفارس المعلم الذى يشار إليه بالبنان فى طول الجزيرة وعرضها .»

وأخذت تصب فى أذنيه كلمات كثيرة متلاحقة، لم تكن تعطيه فرصة لاستيعاب الكلمات والتفكير فيها، أخذت تسقيه- على الرغم منه- كل ما تريد من أفكار وأوهام، أصبحت لها القدرة على تحريك جسده وفكره، وإثارة روحه، استسلم لهما تمام الاستسلام، لم يعد فى مقدوره سوى أن يصدق ويطيع. ملأت عالمه كله، يقظته ومنامه، أليست زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم؟ أهو حلم أم حقيقة؟ استرخت فى جلستها وهى تقول: « لسوف يقول الناس إن زينب بنت الحارث قد أنقذت اليهود من قدرهم المحتوم، وكتبت لهم المجد، بل وحررت العرب من الرعب الذى بذره محمد فى قلوبهم .»

ثم التفتت إلى فهد قائلة: « اذهب وأعد نفسك لليلة نادرة المثال .»

ثم هتفت به أن « قف » أقبلت نحوه قائلة: « أحبارنا، ورجال الحرب فى خيبر، الجميع عجزوا .. أخذوا يعقدون الاجتماعات ويتصلون بكسرى وقيصر وغطفان وقريش .. اتعبوا أنفسهم، لم يقتنعوا فى يوم من الأيام أن امرأة مثلى قادرة على أن توفر عليهم هذا الجهد كله .»

قال فهد فجأة وكأنه يصفعها: « يقولون أن محمدا قادر على أن يشم رائحة التآمر .. إنه له فراسة فى الرجل لا تخيب .»

قهقهت فى حنق: « لن تستطيع قتل محمد إلا إذا قتلت الوهم الذى يعشش فى رأسك .»

وابتلعت ريقها، ثم عادت تقول: « هل رأيته !! »

- « لا ..»

- « الناس يصنعون الخرافات والأكاذيب .. ثم يصدقونها ..

محمد رجل كسائر الناس، أوتى قدرا من الذكاء والحنكة .. لكن الذكاء والحنكة لم يعصما أحدا من القدر .. تلك هى القضية ببساطة .. أتفهمنى !! »

– « أليس نبيا !! »

– « لو كان كذلك لما كان هناك ضرورة لهذا العناء .. النبى لا يولد إلا فى بنى إسرائيل، أو على الأقل يؤمن بما يؤمن به بنو إسرائيل .. لكن محمدا سفه أحلام اليهود والنصارى على السواء .. الحق الكامل عنده وحده .. انظر لو كان نبيا لما ظل هذه السنوات الطوال يكافح عن حياته وحياة من معه .. الله قادر على أن يهبه النصر والتفوق الكامل فى لحظة .. هذه أمور لا دخل لك فيها .. يكفى ما أقوله لك . وسيزداد إيمانك بما أقول عندما تراه قد سقط بين يديك .. دع هذا التفكير .. إنك مقدم على عمل كبير، وفى مثل هذه الأمور لا يصح أن يخالجك أدنى شك، أو تعتورك الهواجس والظنون .. كثرة التفكير والشكوك مدعاة للفشل .. لن تأخذ بيدك إلى حقيقة، بل ستجرك إلى الهزيمة والضياع .. كن حاسما وانطلق، واسحق، كل نوازع التردد .. وحشى بن حرب فعل ذلك .. إنه الآن سيد من سادات مكة .. اسمه يتردد فى آفاق الجزيرة كلها .. أتفهمنى؟ الليلة سيكون لقاؤنا حافلا بكل متعة رائعة .. أيها المحروم طول حياتك .. إننى أفتح أمامك عالما بهيجا ما كنت لتجد الطريق إليه طول حياتك لم آنف منك لأنك عبد .. رأيت فيك إباء السادة وكبرياءهم .. فلا تحن إلى ماضيك التعس .. كن سيدا .. وسر فى الطريق، لا تنتظر أحدا لينهض بك .. أنت وحدك القادر على صنع مستقبلك ومركزك .. وليلتنا هذه ستكون ليلة وداع، لأنك مسافر غدا .. وسلام بن مشكم يعرف ذلك .. أنت الآن أعز لديه من

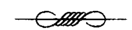
كنانة بن الربيع .. هذه فرصة العمر .. وليلتنا هذه أروع ما فى الزمان .. الشوق والوداع وأحضان امرأة متمرسة فى فنون الحب والسياسة ..»

دارت رأسه .. زاغت نظراته ..

شعر بضجيج هائل يشحن الوجود .

– « يا إلهى .. إن رأسى يكاد ينفجر يا مولاتى ..»

– « أيها المسكين إنك فى حاجة إلى بعض الراحة .. الآن تستطيع أن تذهب ..»



٩

– « دعنى أذهب إليه ، وأغرقه بالوصايا وأمنيه بالأمنيات ..»

هذا ما قالته زينب بنت الحارث لزوجها قبيل الفجر ، فرد عليها سلام بن مشكم دون اكتراث : « حسنا اذهبى إليه .. لا تكثرى من النصائح .. إن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضا . لو كان حقا مؤمنا بما يفعل ، فسيقضى ليله ونهاره ، يفكر ويدبر ، أما إذا كان غير جاد فلن تغنى نصائحك شيئا ..»

وخرجت ، وما أن التقت بفهد منفردة حتى بادرته قائلة : « هل أعددت كل شىء؟ »

قال فى انفعال واقتضاب : « أجل ..»

– « أنت تعرف .. هذا بداية تاريخ مجيد ، وحياة جديدة ..»

– « أدرك ذلك .. وأعرف أنها مهمة محفوفة بالمخاطر ..»

– « لن أخدعك .. إنها لكذلك ، لكن تحسس الطريق ، الحذر الممزوج بالحزم والشجاعة تجعل من الأمر بسيطا غاية البساطة .»

وسددت إليه نظرات ثاقبة وهى تقول : « إن قاتل محمد ستطبق شهرته الآفاق ..»

– « المهم أن أعود إليك سالما .»

– « إنى أحرص عليك منك .. تعرف كم أحبك .. ما أحببت مخلوقا قط مثلك .. قد تتساءل : إذا كنت تحبيننى فلم تقحميننى فى هذه المخاطر؟ السبب بسيط وهو أنى أريدك بطلا .. أريدك فى

الصورة المثلى لرجل أحلامى .. وأنا عربيدة الجسد والفكر والشعور ، تلك حقيقة ، لا أرضى بغير قتل محمد .. إن ذلك صداق حبنا الكبير لسوف يكون حبنا قصيدة عصماء يترنم بها العرب فى البوادى والحضر .»

واقتربت منه ، وتلاصق جسداهما ، وسرت بأناملها اللدنة على عنقه الطويل ، وشعره وبروزات وجهه ، ثم ضمته إلى صدرها فى عنف ..

– « لو لم تعد إلى سالما لقذفت بنفسى من فوق الجبل لا يهمنى قتل محمد وحده ، بل لابد أن تنجو أنت الآخر من أى خطر .. كلا الأمرين بنفس الدرجة من الأهمية .»

قال فى ارتجاف : « وإذا فشلت وعدت بخفى حنين؟ »

– « إن حبيب قلبى لن يفعل ذلك .. حبى لك سيحملك على أجنحة النصر الباهر .. إننى واثقة مما أقول ، لكن تأكد أن حبى لن يتأثر بأية أحداث طارئة ، إنه فوق النزوات القدرية ..»

ثم عادت تقول : « فلتمض .. وسيصحبك خادم عجوز .. أنت منذ الآن سيد .. وحذار أن تكشف عن نواياك لأحد .. لا تسقط بلا ثمن .. الكتمان نصف النجاح .. والله يرعاك . المجد يا فهد لا تصنعه الصدفة .. إنه جد وعرق وتضحيات .. والذين يفكرون كثيرا ويترددون ، أو يحاولون أن يقيسوا تصرفاتهم بالمقاييس الخلقية العتيقة لا ينجحون .. كن قويا جسورا فتنتصر ، وتبعث الرعب فى قلب الأعداء .. أريد رجلا حرا شجاعا ، لا أريد عبدا خنوعا ذا نقائص .. لقد وهبتك أعز ما أملك ، فلتهبنى بعض ما تملك .. والحب عطاء ..»

جرى صوب راحلته ، وهى ترمقه عبر العتمة بعينين تتألقان بانفعالات خبيثة .. ومضى المغموم فى الطريق الذى رسم له ..

فى نفس الوقت .. كان كنانة بن الربيع فى بيته ثائرا متوعدا ، وزوجه صفية بنت «حيى» بن أخطب تقف قبالته صامتة شاحبة الوجه ..

قال كنانة ووجهه محتقن : « إننى على استعداد لأن أدفع كل ما أملك كى أعرف ما يعتمل فى نفسك .»

– « إنك يا كنانة تحمل الأمور فوق طبيعتها .. لا شىء هناك سوى ذلك الحزن الذى يعتصر فؤادى »

– « وكيف أصدقك؟ إنك زوجة وترفضين أن تمنحى زوجك بعض حقوقه .. لقد مللت الصبر .»

ثم قال فى ثورة : « هل هناك رجل آخر؟ اقسم لو صرحت لى بحقيقة الأمر لارتاح قلبى ..»

هى تعلم أنه يكذب ، لو كان هناك رجل آخر ، وتأكد له ذلك لحطم جمجمتها ، وعادت إلى خيالها تلك الرؤية الغريبة .. ذلك القمر القادم من يثرب .. والذى شق السماء والسحب والظلام وأشرق فى حجرها ..

قالت فى شرود : « محمد !! »... وضج بالضحك المتوتر ، وهدر : « محمد هو الذى يحول بينى وبينك؟ كيف؟! »

أفاقت لنفسها ، وارتبكت ولم تدر ما تقول ، لكنه ، عاجلها قائلا : « تقصدين أنه تسبب فى قتل أبيك ، وجلب لك الأحزان !! حسنا .. إننا نعد أنفسنا لحربه فى الأيام القليلة القادمة كما تعلمين .. وسيكون ثأر أبيك عنيفا رهيبا .. وسألقى تحت قدميك برأسه ..»

ونظر إلى وجهها ، لم يشرق بالفرحة كما توهم ، ولم تومض فى عينيها الحزينتين ومضات الشراسة وشهوة الانتقام ، إنها لم تزل جامدة شاردة تهيم فى عالم غامض يزيد « كنانة » حنقا وثورة . وعبر صمتها الممتد أخذت تقول : « لماذا لا تعجلون بالحرب؟ الظلام يثقل على القلوب ، والتوتر يرجف القلوب والعقول ، هذه حياة لا تطاق .. إما الموت أو الحياة .. هذا العذاب ألعن من الموت ، لقد رفضتم إبرام اتفاق سلام مع محمد فماذا بقى ؟! لقد فقدتم الحسم منذ زمن بعيد؟ »

شعر كنانة بغير قليل من الارتياح ، وأخذ يقول : « إن كلماتك قد صورت الموقف أصدق تصوير .. لكن نحن لا نعتمد التأخير والتلكؤ كنا ننتظر نجدة من الروم أو الفرس وننتظر نجدة من غطفان .. إن الضربة القادمة تحتاج إلى إحكام .. إن خيبر هى آخر سهم فى جعبة اليهود .. لكننا اضطررنا لسرعة الحركة عندما علمنا بالحشود التى يعدها محمد ، ولن تمر أيام قلائل حتى يحتدم الصدام ستجدين راياتنا تخفق حول يثرب ، ومحمد محصور لا يستطيع الإفلات ، ومن يدرى فقد يخف إلينا العرب من كل مكان .. وقد تنقض « قريش» « صلح الحديبية » ..»

شردت بنظراتها مرة أخرى إلى بعيد ..

– « إذن ستحسمون الأمر خلال أيام قليلة .»

– « بكل تأكيد يا صفية ..»

– « هذا رائع .. عندئذ ينجاب الظلام ، وتنطوى الأحزان .. وننظر إلى السماء فى الليالى القمرية .. ويسود السلام ، وتسكن النفوس .. فالشقاء الذى أعانيه الآن ينوء به أقوى القلوب فى خيبر .»

هز رأسه فى أسى وقال : « آه .. إن حقدك قد تحول إلى حزن صامت مقيت .. أما زينب بنت الحارث فلها شأن آخر .. حقدها قد تحول إلى طاقة مدمرة من العمل والتفكير .. تصورى أنها سوف ترسل اليوم عبدا من عبيدها لقتل محمد !! »

هتفت فى دهشة : « ماذا؟ »

– « أجل . ليت لك من الجرأة والعزيمة نصف ما لها ،إنها امرأة ذات شرف وكبرياء .. إننى أحسد سلام بن مشكم عليها .»

عاد إليها شىء من السكون ، وأخذت تردد : « هذا هراء .. لقد ثبت فشل مثل تلك المحاولات ولم تجر على اليهود إلا الوبال ، ولو كنت مكان زوجها لصفعتها على وجهها ..»

– « كيف؟ »

– « إنها نصف مجنونة .. أنا لا أرتاح لأفكارها ونزواتها ..»

– « ماذا فيها؟ إنها تسعد زوجها ، بل وتقحم نفسها فى اجتماعات الرجال ، وتشارك بالرأى .. لقد أثبتت الأيام أنها أقوى من الضعف والحزن ..»

هزت صفية بنت «حيى» بن أخطب رأسها قائلة : « إن لى رأيا آخر لا يسرك بالنسبة لها ..»

ثم استدركت قائلة : « حذار أن تظن أننى أغار منها .. ما تمنيت قط أن يكون لى ما لها من « فضائل » ما استطعت فى يوم من الأيام أن أطرب لأفكارها أوسلوكها .. إنها خربة الرأس متسرعة .. لا ثبات لقيمها .. هذا شىء نعرفه نحن ، وقد يخفى على الرجال ..»

وساد خيبر هرج ومرج شديدان .

الشمس لم تشرق بعد ، لكن مقدمات الضوء قد بددت الكثير من

العتمة ، وأبانت عن معالم الأشياء .. لكن عددا كبيرا من المزارعين ومعهم إبلهم وأغنامهم قد عادوا مذعورين صوب خيبر .

ووسط الضجيج الصاخب .. كانت هناك كلمتان تترددان ؛ « محمد . المسلمون » وساد الرعب كل مكان .. وصعد الرجال والنساء فوق الحصون والأماكن العالية وأخذوا ينظرون صوب الجنوب عبر النخيل والزروع ولم يعد هناك مجال للشك أو التخمين ..

إن محمدا ورجاله يعسكرون حول خيبر ، ويسدون منافذها .. وخرجت زينب بنت الحارث مربدة الوجه ، عيناها تطرفان فى قلق وتهتف فى حقد بالغ : « ماذا جرى؟ »

وقبل أن يجيبها أحد ، لمحت فهد يقدم مهرولا تاركا خلفه راحلته والخادم العجوز ، وظلت زينب جامدة فى مكانها ، وعندما اقترب منها ، صرخت : « أيها النذل الحقير ..»

– « ليس الذنب ذنبى يا مولاتى ..»

– « هل رأيتهم؟ »

– « أجل .. محمد و ..»

صاحت : « كفى .. لا أريد أن أسمع اسمه »

– « إن الأقدار هى التى أفسدت مخططاتنا ..»

– « لا دخل للأقدار فى شىء من هذا .. نحن حمقى وكسالى ..»

– « المجد يأبى أن يمد يده لتعس مثلى .. أنا أعرف ذلك ..»

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة ثعبانية وتمتمت : « تستطيع أن تبحث عن المجد هنا .. ستدور على أرض خيبر رحى حرب ضروس لم يسمع محمد بمثلها قط .. والنصر لنا ..»

قال فهد فى خنوع : « هل تغير قلبك نحوى؟ »

دفعته فى صدره دفعا عنيفا وهى تصيح : « أهذا وقت الغزل أيها الحقير الأبله؟ »

طأطأ رأسه حزينا، وهم بالانصراف، ولكنها أمسكت به، وأخذت تدقق النظر فى وجهه وملامحه، ثم قالت : « لو تفوهت بحرف واحد عما كان بيننا لـ ..»

قاطعها فى خضوع : « أعرف . ولن أفتح فمى . لأنك أعز لدى من أى مخلوق .. وأنا أحبك .»

قالت وهى تضحك فى جنون : « قسما لئن هزمنا محمدا، لأغرقتك فى متعة ما حلمت بها قط . هذا نذر على . اذهب وابحث لك عن سلاح .»

وبقى فهد وحده يفكر .

أيبحث له عن سلاح؟ لماذا؟ عن أى شىء يدافع؟

لأول مرة تطن هذه التساؤلات فى ذهنه . لقد انتصب الخطر خارج الأسوار، وبعد قليل تنهمر الدماء، وتتعانق السيوف، ويسقط الرجال، وخيبر تدافع عن زرعها، ونخيلها ودينها وتثأر لشقيقاتها، ومحمد ينصر دينه، ويفتح الطريق لدعوته، ويضرب من هموا بضربه واغتياله . وأنا فهد من أكون؟

أنا شىء كالطفيليات فى حديقة مولاى . أنا أداة . هل كنت سأذهب حقيقة لأقتل محمدًا؟

وسمع فهد مولاه سلام بن مشكم يصدر أوامره لمن حوله كقائد .

– « أدخلوا الأموال والعيال حصنى « الوطيح » و« السلالم » وادخلوا المحاربين حصن « بطاه »، وضعوا بعض القوات لدى

حصن « ناعم » و« القموص» و« الزبير » واستعدوا لحرب لم تر لها العرب مثيلا .»

وتمتم فهد : « ترى فى أى حصن أذهب؟ »

فسمع من خلفه عبدا من عبيد مولاه ، يقول بصوت رفيع مميز : « اذهب إلى حصن العيال . هناك ستجد زينب .»

وولى هاربا وهو يقهقه .

١٠

تمتم عبد الله بن أبى كبير المنافقين قائلا لنفسه . « إنه عذاب من نوع غريب لا يستشعره غيرى ، فبينى وبين نفسى أمقت محمدا وأحنق على دعوته وانتصاراته ، وأمام ابنى والناس أظهر الخوف على محمد ، وأتظاهر بإسداء النصح له ، وتبصير رجاله بما يجب أن يفعلوا ، لكم تمنيت أن أجد المناخ المناسب الذى يبدو فيه ظاهرى كباطنى ، وأن أعبر عما يجيش فى صدرى دون حرج ، وأنا بين المقت الخفى ، والحب الظاهرى أقاسى العذاب .. لماذا لا أقف على ملأ من الناس ، أطلق كلمة الحق التى أعتقدها صريحة مدوية وليكن ما يكون . وفى المدينة مسلمون وكفرة ، ولكل واحد موقف ، لا أنكر أيضا أننى أطرب وأسعد للغش والخديعة والتآمر ، ولا أنكر أيضا أننى أؤدى دورا كبيرا فى سبيل الغاية التى أعمل لها ، لكنى مع ذلك حزين . وليس مرد حزنى إلى ما ينتابنى وينتاب حلفائى من فشل .. لكن مرده الحيرة بين الصراحة والجبن ، بين الانكشاف والانطواء ، بين الشك واليقين .. واعذاباه ! »

ونطق آخر كلمة بصوت مسموع ، وقد صادف دخول زوجه فى ذلك الوقت ، وعندما سمعته يقول ذلك هتفت : « ماذا جرى ؟ »

– « لا شأن لك بما أقول .. »

– « ألست زوجك ؟ »

– « كلكم أعدائى .. »

أدركت ما يرمى إليه ، فقالت فى ضيق : « كلهم ذهبوا لحرب

اليهود ، وقعدت أنت .. لو رأيت الفرسان يتيهون فوق جيادهم والسيوف فى أيديهم ، لطرت إليهم ..»

قال فى صوت أجش : « أعهدتنى أخاف الحرب ، أو أنكص عن التضحية؟ »

– « وما قيمة الشجاعة إذا لم تصل وتجل لأشرف غاية؟ »

– « وهل تسمين الدم والحرب والخراب غاية شريفة؟ »

قالت فى حدة : « ماذا جرى لك؟ ألم تعلم أن اليهود كانوا على وشك الهجوم على المدينة ، ومعهم رجال من غطفان ، وكان الرومان والفرس على وشك الاتفاق معهم .. فإذا فكر محمد فى حماية مدينته وجيشه ودعوته ، وضرب المتآمرين قبل أن يبكروا إليه ، وجهت إليه اللوم ؟! »

قال فى شرود : « عيبك أيتها الحمقاء أنك تصدقين كل شىء .»

– « إن قصة اليهود مع الرسول حلقات متصلة من الغدر ، وأنت تعرف ذلك .»

– « دعى ما فات .. ماذا فعل خيبر؟ »

– « أنت أخبرتنى ذات مساء أن تأديب المسلمين سيكون على يد خيبر .. وأنا أصدقك .. إن لك فى خيبر صداقات وطيدة وأنت تزورهم .»

قال وقد ارتجفت لحيته : « كنت أمزح .»

– « لكن المخلصين الذين يحملون الأنباء للرسول لا يمزحون »

وعاد إلى شروده وأخذ يقول : « تتهميننى بالقعود والكسل .. وهل نسيت أن محمدا قال لن يخرج معى إلا من شهد « صلح الحديبية » وبيعة الرضوان؟ فكيف أخرج معه؟ »

ابتسمت . وسددت إليه نظرات عاتبة وقالت :

- «لم لا تكمل كلامك؟ إنك تنتقى من الكلام ما يؤيد وجهة نظرك دائما .. لقد فتح محمد الباب لمن يريد الخروج على ألا ينال شيئا من الغنائم، إن السابقين الأولين الذين خرجوا إلى الحديبية وبايعوا محمدا على الموت أولى بالتكريم والإعزاز».

قال ساخرا : « أأخرج وأحارب بلا غنائم؟ »

- « لم لا تخرج من أجل الله كما خرج غيرك؟ »

- « لم يندبنى الله لأمر كهذا .. إن ترك اليهود لن يؤدى لضرر بالغ »

- « ها نحن نعود إلى الجدل العقيم من جديد .»

جذبها من كمها وحدجها بنظرات مخيفة وهتف : « سيعود المسلمون مخذولين منهزمين »

صرخت : « ماذا؟ إنك تهذى .»

قال فى اهتمام : « لقد رتبوا أمرهم . وأعدوا لجيش محمد كمينا لن يعود منه سالما ، وهناك أبطال مغاوير ، ومال وسلاح وزروع وقوم لن يستسلموا .»

همست فى خوف وقد دق قلبها : « أى كمين؟ ولماذا لم تخبر الرسول به؟ »

قهقه فى سخرية : « وهل سألنى رأيى؟ إنه دائما يطيع الصبية ويعصينى .. من أنا؟! أنا عبد الله بن أبى ، أصفى الخزرج فكرا ، وأصوبهم رأيا ، وأبعدهم نظرا .. لكن محمدا يزعم أنى منافق ، إن خيبر سوف تلقن المسلمين درسا لن ينسوه مدى الحياة ، إن بقيت لهم حياة .»

فكرت المرأة ، وأخذت تتصور ما يمكن أن يحدث لو أن هناك كمينا منصوبا ، ماذا تفعل؟ أتهرول إلى الشارع ، وتخبر الناس بما

سمعت ، لعل أحدهم ينطلق بجواده محاولا اللحاق بجيش الرسول كى يحمل إليهم التحذيرات؟ لكن يقينا من نوع رائع أنزله الله فى قلبها ، فقالت وقد هيأت نفسها : « فى كل حرب كنت دائما تقول إن محمدا وجنوده سينهزمون »

– « أنا؟ »

– « أجل .. وكانت النتائج دائما تأتى غير ما قلت .»

– « متى؟ »

– « فى بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبنى قريظة ، وبنى النضير وغير ذلك »

قال فى حدة : « يا حمقاء أنا لم أقل بالهزيمة ، كنت أتحدث عما يجب أن يكون بصرف النظر عن الهزيمة والنصر .. إن النصر لا يعنى أننى كنت على خطأ .. قد ينتصر المخطئون ، لكن ذلك ليس معناه أنهم سلكوا أعقل السبل على النصر .»

– « أأنت صادق فيما تقول؟! »

– « وهل أنا غير ذلك؟ »

– « ليس لدى أسباب قوية لتفنيد دعواك ، لكنى عندما أنظر إليك ، وأستعيد تصرفاتك وحياتك .. أشك فى أى كلام أسمعه منك ، ربما تكون قد أوتيت براعة فى الحديث . وقوة فى الحجة .. لكنى أشعر فى أعماقى بأنك لست على حق .»

ودوت صفعة على وجهها فجأة : « ماذا تقولين يا خاسرة؟ »

وضعت يدها مكان الصفعة ، وسددت إليه نظرات دامعة ، وأخذت تفكر فيما قالت ، لقد كانت كلماتها بالفعل قاسية ، وهى لم تكن تجرؤ على قول مثلها فى الزمن الغابر ، لكنه على أى حال

زوجها ، والرجل والمرأة مختلفان ، لكل منهما مكانته مهما كان الأمر .

– « أعترف بأنى أسأت إليك يا عبد الله .»

– « كما لم يسىء أحد من قبل .»

– « إنها سقطة لسان .»

قال فى انفعال ..

– « ليس العيب عيبك .. لكنه عيب الدنيا .. كل شىء يتغير .. أسس كثيرة تنهار ، وتخلى مكانها لأفكار ما كان أحد يصدق أنها ستملى روحها على الناس .. العيب فى المبادىء الجديدة .»

جففت دموعها وانطلقت تقول : « إنى أعترف بخطئى ، وأعتذر لك ، لكن ..»

– « لكن ماذا؟ »

– « لا تتعرض بمحمد .»

– « أنا لا أتكلم عن محمد النبى .. بل أتكلم عن محمد البشر .»

أمسكت بيده فى ضراعة وقالت متوسلة : « بالله عليك يا عبد الله لا تقل مثل هذه الكلمات .. إنك تنقد الرسول دونما تحفظ ، وهذا يبعث القشعريرة فى جسدى ، ويسرع بدقات قلبى ، إنك تعرض نفسك لغضب الله ، وأنا أريد لك الخير يا عبد الله .. أنت زوجى ، لا تحاول أن تلتمس المعاذير لتصرفاتك .. إن هذه التبريرات إذا أقنعتك أو أقنعت أحدا من الناس ، فلن تجدى عند الله فتيلا .. كن شجاعا واسحق أساك وأهواءك .. لتكن حكيما .. لكنك غير موفق .. لن تخسر شيئا إذا وطدت عزمك على الإيمان بمحمد وبكل ما يفعل ، فإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبك بعض الذى يعدكم .. لقد تعبنا من طول الجدل .»

قال في شراسة : « أما أنا فلن أتعب حتى يطبق جفني إلى الأبد .. حتى الموت .»

قالت في حزن : « واعذاباه !! »

– « أنت أيضا تقولينها .. كلانا يقولها لكن بطريقة تختلف عن الآخر .»

– « بل أقولها من أجلك يا عبد الله .»

– « وأنا أقولها من أجل المساكين من الناس الذين يذبحون الآن على أبواب خيبر »

وسادت فترة صمت قالت الزوجة بعدها : « دائما نتجادل ولا ننتهي إلى شيء .»

– « لأنك امرأة عنيدة ..»

– « بل لأنك رجل عنيد ..»

ثم رفعت يدها إلى السماء ، وقالت وقد تندت عيناها بالدموع : « اللهم اهد زوجي واشرح قلبه لنور الإيمان بالإسلام ، واملأه بحب رسولك الكريم »

قال وقد تجهم وجهه ، وارتجف شعر لحيته : « لا تضرعي من أجلي .. إن دعواتك في الهواء .. إن بيدي مصيري .. أتفهمين؟ »

طأطأت رأسها ثم استدارت ، وعادت من حيث أتت ..

١١

استقبلت مكة « صلح الحديبية » بغير قليل من الارتياح ، وإن بعض بيوتها سعد به أيما سعادة ، فالذين لهم أخوة أو أبناء أو آباء تبعوا محمدا نالوا قسطا من الطمأنينة ، فالحرب لن تنشب طوال مدة العهد ، ولن يواجه الابن أباه فى معركة دامية من أجل العقيدة وحمايتها ، وأولئك الذين تستروا وأخفوا سلاحهم رضوا بما حدث انتظارا لفرج الله حسبما وعدهم الرسول ، ورجال المال والتجارة كانوا أكثر الناس رضى بهذا الاتفاق ، فقد فتح أمامهم الطريق الآمن مرة أخرى إلى الشام ، وبالتالى ستنشط الأسواق ، وتنتعش حركة المال ، وسوف ينعكس ذلك كله على التاجر الكبير والحمال الصغير سواء بسواء ، أى أن الفائدة ستعم القاصى والدانى ، لكن بعض المتحمسين والحاقدين قد انتابهم غم شديد ، قد رأوا فى هذا الاتفاق رفعا لشأن محمد بين العرب ؛ إذ إنهم فوضوه مفاوضة الند بالند ، كما أنه سيجد الفرصة كى يرتب أموره ، ويزيد من أتباعه ويتفرغ لنشر دعوته ، وتقوية صفوفه والحاقدون أيضا يكرهون الانتظار ، إنهم لا يستشعرون الراحة والرضى إلا إذا رأوا الصراع يحتد ، والدماء تسيل ، وعدوهم ينزوى كى يلعق جراحه ، لكن صوت العقل كان أقوى من صوت العواطف النافرة الحاقدة ، فانصاعت مكة للوضع الجديد عموما ورضيت به .

ولم يكد يمر على عقد الصلح شهر أو أقل من شهر ، حتى تواترت الأنباء عن حرب وشيكة الوقوع بين محمد واليهود فى خيبر ، وقد حظيت هذه الأنباء باهتمام بالغ وأخذ صداها يتردد

فى الأندية والمسامر ، وأصبحت حديث الجميع فى البيوت ، وحول الكعبة وفى الأسواق ، لم يقابل صراع محمد وخيبر بمثل ما قوبل به صراعه فى بنى النضير أو قريظة ، فالجميع يعرفون أن خيبر لها ميزات كبرى تجعل لها التفوق الكاسح ، ففى خيبر المحاربون الأقوياء والقادة الأذكياء ، وفيها المال الوفير ، والمؤن الكثيرة ، وفيها الوعى الكامل بدورهم الخطير إزاء الأحداث ، فهم معقل اليهود الأخير فى الجزيرة وعليهم تتركز الآمال .

وفى مجلس من مجالس الطرب والشراب ، مال عكرمة بن أبى جهل على خالد بن الوليد بعد أن كف الضجيج ، وفرغت الكئوس وقال عكرمة : « يا ابن الوليد .. ألم أقل لك؟ أن صلح الحديبية سيكون ضربة لنا فى الصميم .»

– « كيف؟ »

– « هادننا محمد بالأمس ليميل على اليهود غدًا . والحرب ربما تدور رحاها الآن فى خيبر ، ومحمد آمن تماما ، ولن يطعنه أحد من الخلف . لو انتصر عليهم محمد ، فسيكون ذلك هزيمة كبرى لنا .»

قال خالد : « لسنا طرفا فى النزاع .»

– « أعرف . على الأقل حاليا ، لكن عندما تنتهى الهدنة ، يكون محمد قد فرغ من كل أعدائه ولن يبقى سوانا ، الحق أننا طعنا اليهود إذ عقدنا صلح الحديبية ، لكن .»

قال خالد وهو يستمع فى اهتمام بالغ : « لكن ماذا؟ »

– « ليس الأمر بالسهولة التى أتحدث بها ، أعنى أن خيبر لن تهزم .»

– « وما تفسيرك لذلك؟ »

– « خيبر قلعة حصينة، وبها إمكانات لا تنفد .»
– « أعرف .»
– « لذلك فإنى أراهن على أن محمدا ورجاله سينهزمون .»
– « يهزمون؟ هذا ما أشك فيه .»
– « أتعتقد ذلك كقائد؟ »
– « أجل .»
– « بل سيعجز المسلمون عن اقتحام أسوار خيبر وقلاعها، سيهبط الموت فوقهم كلما هموا بالدخول. ولا طاقة لمحمد ورجاله على حصار طويل قد لا يؤدى إلى نتيجة .»
قال خالد فى شىء من الشرود: « كل ما أعرفه أن محمدا يحسب كل شىء بدقة، ورجاله لا يعوزهم الإصرار واقتحام المخاطر .»
– « ستكثر ضحايا المسلمين دون فائدة .»
– « أحيانا يا عكرمة يلجأ محمد إلى الحرب الخاطفة، وأحيانا أخرى يتسم بالأناة والصبر على النضال الطويل، إنه يلبس لكل حال لبوسها ولا ييأس أو يتقاعس. ولنا فى بنى قريظة وبنى النضير عبرة، لم تقف القلاع والحصون والعدة والمخزون من الطعام والماء حجر عثرة فى سبيله »
قال عكرمة بن أبى جهل فى إصرار: « أقسم أن خيبر ستقهر المسلمين أتراهن على ذلك؟ »
– « إن تمحيصى للأمر يعطينى نتيجة غير التى تتصورها .»
– « أنا لا أجدف، ولكنى أقيم تصورى على أسس عقلية متينة .»
– « لندع هذا الأمر حتى الصباح »

ولوح عكرمة بيده فى حماس قائلا : « وغطفان ستساعد خيبر .»

– « لن يغير ذلك من النتيجة المرتقبة .»

– « ولدى اليهود دائما حيل ومكائد لا تنفذ .»

– « الأمر أكبر من ذلك يا عكرمة .»

– « كيف؟ »

– « آه . لقد التحمت مع المسلمين كثيرا كما تعرف ، أتذكر يوم « أحد » آه . إن للحرب عندهم مذاقا خاصا ، فهم يستشعرن متعة كبرى وهم يصارعون ويسقطون . أما نحن فنتحرك فى توتر ، ونندفع فى حقد ، والذى يسقط يشعر بحزن عميق قاتل يرافقه فى رحلة الموت المضنية . هناك شىء غير القلاع والحصون والعدد والعدة ، والمكائد والحيل . إننا أمام ظاهرة من ظواهر الحياة فريدة . فى يثرب رجال أمرهم عجب . ألم تفكر فى الأمر من قبل؟ »

قال عكرمة فى شىء من الضيق : « بل كنت أفكر دائما ، رأيت رجالا يهزمون وينتصرون ، ويخافون أو لا يبالون . شأنهم شأن باقى الناس . وفى رجالنا رأيت صورة مشابهة لذلك . الناس فى يثرب أو فى مكة بشر . أما هذه الصورة المثالية التى تتوهمها لرجال محمد فهى صورة غير صادقة .»

قال خالد فى شىء من الملل : « إنك ترفض أن تفتح عينيك وعقلك جيدا »

– « ما معنى ذلك؟ »

قالها عكرمة وابتلع ريقه ، واستطرد : « أنت معجب برجال محمد ومبادئه .»

قال خالد دونما اكتراث : « لك أن تتصور ما شئت . لكن الذى

يهمنى فى الأمر هو أن تفهم عدوك على حقيقته . كى تعرف كيف يفكر ، وكيف يحارب ، والأسس التى ينطلق عليها ، والغاية التى تحركه ، وعندما تفهم عدوك يا عكرمة ، تستطيع أن تستنبط الوسائل المناسبة لجودة أو فساد تخطيطاته »

– « أتفهمنى؟ »

قال عكرمة ، وهو يمسك بيد مرتجفة كأسا من شراب : « ستنتصر خيبر .»

قال خالد باسما : « سينهزم اليهود .»

– « اليهود لن يستسلموا هكذا بسهولة فى آخر معقل لهم .»

– « ومحمد لن يترك مكمن الخطر الدائم يهدده ، لقد حشد اليهود له وكانوا على وشك الانقضاض على المدينة .»

قال عكرمة مهتاجا : « ستنتصر خيبر »

– « بل ستهزم .»

– « أتراهن؟ »

– « أراهن يا عكرمة .»

– « على خمسين ناقة »

– « موافق »

وهكذا كان شأن مكة ، نقاش لا يهدأ ، ورهانات فى كل مكان ، اهتمام شديد بما يجرى فى الشمال ، وتحسس للأنباء فى كل مظانها . وخروج ذوو الفضول من أهل مكة مساء وصباحا إلى مشارف البلدة يستقبلون المسافرين ، ويتسقطون الأخبار فى لهفة عارمة ، وقلق بالغ .

قال أبو سفيان لزوجه هند وهو يأوى إلى فراشه : « يا

للعجب!! استطاع محمد أن يشغل بال العرب بحكاياته وأيامه وأفكاره . ليس فى مكة بيت إلا ويتحدث عن معركة خيبر .»

قالت هند وهى تحدجه بنظراتها الحانقة .

– « إن حماقتنا هى التى مهدت له الطريق .»

– « ليس الأمر كما تتوهمين : لم ندخر وسعا فى مناوئته .»

قالت ساخرة : « ولم تدخروا وسعا فى مراضاته، وطلب الصلح . هل نسيتم صلح الحديبية؟ يا للعار !! »

– « لم نسع إلى صلح الحديبية جبنا . لكننا فى الحقيقة كنا فى حاجة إليه ، ولو لم نفسح طريق التجارة إلى الشام لعم الفقر ، وضج الناس بالشكوى ، بل لربما ضاقوا ذرعا بنا وبتصرفاتنا وهرولوا إلى محمد يعرضون إسلامهم ، إننا لا نسلم لمحمد بأى رغبة إلا إذا تأكدنا ضرورتها لنا ونفعها لأهل بلدتنا . إن السياسة شىء آخر غير التهور .»

قالت فى ضيق : « وصرخات الدم الذى أراقه محمد؟ »

– « تتحدثين كامرأة فقدت أحباءها .»

– « وأنت؟ ألم تفقد أعزاء لديك؟ »

– « أنا لا أنظر إلى الأمر يا هند من زاوية شخصية . هنا جموع الناس ومسئوليتى عنهم . قلت ذلك من قبل . ما أشد ألمى على فقد حنظلة ولدى . وفقد عتبة وشيبة وغيرهم . إن أمير القوم يعتبر الناس جميعا أبناءه ، وإلا امتلأت قلوبهم بالحقد عليه ، وانصرفوا عنه .»

قهقهت فى غيظ : « تتكلم كنبى . الجميع فى هذا الزمان يحلمون بأن يكونوا أنبياء .»

– « أتسخرين منى؟ »

– « آه . ذلك الرجل الذى لعب بكم ، وحطم كبرياءكم ، وجعلكم مادة للهزء والسخرية فى طول الجزيرة وعرضها . وامصيبتاه . لسوف يأكل اليهود ، ثم يستدير نحوكم .»

– « لن ينقض محمد صلحه .»

– « لن يعدم الأسباب يا أبا حنظلة .»

قال فى شىء من الضيق : « لم تسبقين الأحداث؟ انتظرى لعل أمرا ما يحدث فى خيبر . إن خيبر خصم عنيد .»

اقتربت منه فى لهفة قالت : « أتعتقد أن اليهود سينتصرون ؟ إن لك تنبؤا بالأحداث كثيرا ما يصدق . قل الحق .»

– « ليس من السهل الحكم على أمر كهذا .»

– « إنك تتعمد إغاظتى .»

– « اليهود لن يهزموا بسهولة ..»

– « ومحمد؟ »

قال أبو سفيان : « لن ينتصر بسهولة أيضا .»

– « لا تراوغ . أينتصر أم يخسر .»

– « الحق إننى عاجز عن التنبؤ »

أخذت تدق الأرض بقدميها فى حنق وتقول : « الجميع يتخبطون . ليس هناك أحد فى هذه الديار قادر على أن يجزم برأى ، هذا هو الضياع بعينه . آه لم ملكت زمام الأمور فى هذا البلد .»

هز رأسه فى ابتسامة خافتة وقال : « النساء والشعراء لا يصلح أى فريق منهما لسياسة الأمور »

ثم استدار نحوها وقال مؤنبا : « ألم تفكرى فيما قد يحدث من

هزيمة؟ الاحتمال الوحيد عندك هو النصر . ألم تتصورى القتلى وهم مطروحون على الرمال تنهشهم الطيور الجارحة والضباع ؟ »

صاحت فى حيرة : « الموت أهون من الرضى بالذل .»

– « أى ذل يا امرأة . نحن أحرار فى بلدنا ، لقد أملينا شروطنا فى صلح الحديبية .»

قالت ساخرة : « ولماذا نزل القرآن على محمد قائلا : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .»

ثم تمتمت فى هدوء عاصف : « لسوف تنتصر خيبر »

تنهد قائلا : « أرجو أن تتحقق آمالك .»

– « أتراهن على ذلك بمائة من الإبل »

ابتسم أبو سفيان وقال : « خذى كل شىء ودعينى أنم يا هند »

همست : « تنام ملء جفنيك . وأنا أستلقى على ظهرى مفتوحة العينين . أمارس فى الأحلام ما أعجز عن تحقيقه فى اليقظة ، حتى تهدأ أعصابى ثم أنام .»

قال دون اكتراث : « لسوف تصابين بالجنون .»

دفعته فى صدره حانقة ، ثم انصرفت عنه .

١٢

فى حصن « نطاد » احتشد أغلب المقاتلين من اليهود، وعلى رأسهم قائدهم سلام بن مشكم، كانوا عددا كبيرا من الرجال الأشداء الذين مارسوا الحرب طويلا، ونضجوا فى نيرانها الحارقة، وعنفها البالغ وقف سلام بن مشكم بينهم خطيبا .

– « أيها الرجال الأبطال، لم يعد هناك مجال للتفكير أو للبحث عن مخرج . انظروا العدو يحيط بكم من كل جانب . ليس أمامنا سوى الحرب . اقتلوا فى نفسكم كل نازعة أمل فى حل سلمى . واضربوا بقبضاتكم الحديدية كل فم تخرج منه فلسفات عقيمة عن الندم أو اليأس والصلح . لا حل إلا بسواعدكم وبسيوفكم .. محمد ورجاله جاءوا مستقتلين . إما النصر أو الموت . وليكن هذا شعاركم، بل أنتم أولى بهذا الشعار من المسلمين . فلو انهزم المسلمون للموا شعثهم واستنصروا بإخوان لهم فى المدينة . أما أنتم فليس لكم أحد، الآن، ينصركم إلا عزيمتكم . الحرب حتى الموت . فما قيمة الحياة فى ظل الهزيمة؟ إما أن يأخذونا عبيدا، أو يضربوا أعناقنا كما فعلوا فى بنى قريظة . أو يقذفوا بنا فى قلب الصحراء حيارى أذلاء تائهين . إن أعظم شىء ينقذكم وينقذ نساءكم وعيالكم هو التسابق إلى الموت .»

هتف كنانة بن الربيع : « القول ما قلت يا سلام . فوالله لن تتكرر المأساة . ولن ننزل من حصوننا مجردين من السلاح مطأطئى الرءوس كما فعل التعساء بنو قريظة .»

وقف الحجاج بن علاط تاجر اليهود المعروف وقال، شاحب

الوجه، مضطرب الأنفاس: « افسحوا صدوركم قليلا، الوقت عصيب، وخير الكلام ما قاله سلام بن مشكم، نعم الرجل هو، لكن ألا ترون أن نصالح محمدا على نصف مزروعاتنا ونحيا في سلام؟ »

انطلقت كلمات الاحتجاج من كل مكان، وناشته ألسنة السوء، وحاصرته النظرات الحانقة، ولوحت الأيدى المتوترة بسيوفها وشعر ببصقات لزجة تضرب صفحة وجهه من كل اتجاه، وتمتمت فى جزع: « إننى أعذركم، ومادام هذا رأيكم فسأتقدم الصفوف .»

وصاح سلام بن مشكم: « الحرب .»

وتبعه هدير صاخب: « الحرب حتى الموت أو النصر .»

وصاح أحد الجنود أسفل الحصن: « إنهم قادمون .»

وساد هرج ومرج، وتدافع يهود خيبر من حصن « نطاد » لملاقاة المسلمين.. وفى حصن « الوطيح » جلس بعض النسوة يشوبهن الوجوم والقلق، وعيونهن ترمق المحاربين عبر النوافذ والكوات الصغيرة، لايصرفهن عن ذلك صياح الأطفال وضجيجهم، ووقفت زينب بنت الحارث مشدودة القامة ثم دارت بنظراتها هنا وهناك حتى رأت صفية بنت «حيى» بن أخطب زوجة كنانة، فمضت نحوها، كانت صفية تجلس شاحبة الوجه، شاردة النظرات، وقد أسندت خدها على قبضتها اليمنى، وبدت الكدمة بجوار عينيها زرقاء متورمة.

- « طاب صباحك يا صفية .»

رفعت صفية إليها عينين محتقنتين وتمتمت:

- « طاب صباحك .»

– « فيم تفكرين؟ »

– « أنت تعرفين . وهل هناك شىء نفكر فيه سوى ما يجرى الآن؟ »

– « رجالنا يضربون فى شجاعة . صيحاتهم تشق عنان السماء لم يتقهقروا قيد شعرة .»

قالت صفية : « كان فى الإمكان تجنب إراقة الدماء »

– « كيف؟ »

– « لو لم نعتزم السير إلى محمد .»

– « هذه ترهات ، كان لابد من الحرب . ولا مجال للنظر إلى الماضى الآن .»

– « محمد يا زينب لا يرد طالب صلح .»

هاجت زينب وماجت وقالت محتدة : « أنحن الذين نتقدم بطلب الصلح . الأقوياء يملون شروطهم بسيوفهم ، ليس هناك شىء اسمه الصلح بالنسبة لهم . إنهم يصدرون أوامرهم فقط .»

قالت صفية فى شرود : « القادمون من « يثرب » يعرفون الطريق جيدا ، ويعرفون مشاقه .»

– « وأبوك .»

– « أبى ، ماذا ؟ لقد مات . لقد اختار منيته بنفسه كان يعرف النهاية .»

– « لكن محمدا أمر بضرب عنقه .»

– « مات مصرا على رأيه ، مرحبا بالتضحية فى سبيله ، أنا لا ألوم أبى ولا ألوم محمد ، فكلاهما كان ينشد النصر ويعمل له ، وكان لابد أن ينتصر أحدهما .»

قالت زينب فى سخرية : « أعرف كل شىء .. أنت مطمئنة غاية

الاطمئنان، فلو قدر لمحمد الفوز لاستطاع « كنز بنى النضير » الذى يستحوذ عليه زوجك إنقاذكم. إنك مطمئنة إلى ما عندكم من ذهب، وتخافين عليه. ولتذهب خيبر إلى الجحيم. ولتذهب المبادئ والدين إلى أية داهية. أيتها الطامعة !! »

– « احذرى أن تخوضى فى حقى. »

– « ها. ها. من أنت. »

– « أنا صفية. »

– « وأنا زينب. زوجة الرجل الذى يحمل اللواء ويكافح عن شرفكم الضائع. »

تغير وجه صفية، ورقصت عيناها فى اضطراب، وصرخت كمجنونة: « اخرسى يا ساقطة. »

وتندى جبينها بالعرق الغزير، وأخذت تلهث من الانفعال، بينما جمدت زينب فى مكانها وقد هرب الدم من وجهها، وهمت بأن تنشب أظافرها فى عنق صفية، لكن النسوة كن قد تكاثرن حولهما، وأمسكن بيدى زينب، التى انفجرت باكية، وأخذت تخمش وجهها بأظافرها وتشد شعرها وتصرخ فى لوعة..

وشعرت « صفية » بغير قليل من الندم، لقد طعنت المرأة فى أعظم ما تعتز به، وعلى مشهد من النسوة، وهذا لا يليق بها أو بأخلاقها، ومن ثم هبت واقفة، ومضت صوب زينب، ووقفت أمامها وقد أحنت رأسها فى أسف وقالت: « آسفة يا زينب. إنها سقطة لسان قبيحة، كان ما حدث على الرغم منى، اعذرينى، فأنا لم أنم دقيقة واحد من الليل. إنى جد متعبة. »

وتبللت عيناها بالدموع، ثم أمسكت برأس زينب وقبلتها

نادمة . وعادت صفية تقول : « الرجال يموتون . ونحن هنا نتصرف بلا عقل .»

وردت امرأة : « لماذا لا نقيم الصلوات حتى ينصر الله رجالنا بدلا من الجدل العقيم؟ »

قالت زينب وهى تجفف دموعها : « وهل يقبل الله الصلوات من ساقطة؟ »... ثم شهقت باكية مرة ثانية ..

بينما قالت صفية : « أكرر اعتذارى يا زينب .. إن زوجك بطل مغوار ، وأشهد الله أننى لم أر بعينى ما يسىء إلى شرفك »

قالت زينب ، وقد أثلج قلبها حديث صفية الأخير .

— « الحاقدات كثيرات . إنهن يغرن منى . يردن أن يهدمن بيتى ويطلقن من حولى الأقاويل والشائعات . لكن الجميع يعرفون من أنا وزوجى يعرف من أنا .»

وأخذت النسوة يتهامسن ، ماذا جرى؟ أية أقاويل وأية شائعات؟ لابد وأن فى الأمر سرا !

وأخذت العيون الفضولية ترقب زينب بنظراتها النهمة ، بل أصبح سر زينب يشغلهن أكثر مما تشغلهن الحرب المحتدمة الأوار ، وتعالت صيحات الجند أكثر من ذى قبل ، وانطلقت التكبيرات تصم الآذان ، فجرت النسوة صوب النوافذ والكوات . لابد وأن حدثا كبيرا قد جرى ، ترى هل انكسر اليهود؟

وأخذ البعض يهبطن السلم ويصعدن ثانية ، ويتنسمن الأنباء . وأخيرا أتى أحد الحراس القريبين ، واقترب من النافذة ، وأعلن بصوت جريح : « لقد قتل القائد . قتل سلام بن مشكم .»

بقيت زينب مبهوتة لحظة ، ثم صرخت وقد ران الصمت على الجميع .

- « مستحيل . زوجي لن يموت . مستحيل . أنتم تكذبون .»

ثم انتزعت نفسها من بين أيدى النسوة، وهبطت السلم مسرعة، وهى تقول : « لابد أن أرى بنفسي . زوجي لا يموت . سلام أقوى من الموت . لقد وعدني بالنصر . وبأن يقدم لى زوجات الرسول هدايا . وعلى رأسهم بنت أبى بكر . سيكن لى سبايا . هذا ما قاله، سلام لم يكذب على ولم يخدعني . إنه يحبنى على الرغم من سفالتى . إن زوجى أعظم إنسان فى الوجود . كيف يموت؟ أنتم تكذبون .»

وشقت صفوف الجند، ومضت عبر السيوف والدماء والغبار وصيحات الحرب، لم يستطع أحد أن يمنعها، يا لمصيبتاه. إن القيادة فى يد رجل غيره . وعادت بعد فترة . وصعدت إلى حصن « الوطيح ». والنسوة يستقبلنها صامتات باكيات. ثم ألقت بجسدها المنهك على الأرض، وهتفت فى وهن : « لقد مات .»

ثم تمددت على الأرض، قد تصلب جسدها، وجحظت عيناها، أخذت تضرب بيديها المتشنجتين وساقيها فى الهواء، ومن فمها تنساب رغوة بيضاء، وتصدر عنها أنات طويلة عالية على الرغم من إغلاق فمها .

واقتربت صفية منها . وأخذت تدلك لها جسدها، وتسوى شعرها، وتمسح الزبد الذى يطفر من فمها .

ولم تفق إلا بعد وقت طويل ... كانت أشد إرهاقا وشحوبا .

وتمتمت وهى تستغرق فى النوم : « أقسم برأسك . بمحمد . لن أفرط فى ثأرك يا سلام بن مشكم .»

١٣

كان القتال مريرا قاسيا، واستمات اليهود فى الدفاع استماتة كبرى، وقلت الأقوات لدى المسلمين، وطالت المعركة أكثر مما يجب، وأصدر الرسول أمره لجنوده بأن يأكلوا لحوم الخيل، ثم أمرهم بأن يهاجموا حصن « الصعب بن معاذ » حيث إن به كثيرا من الأقوات، وقد استطاع المسلمون الاستيلاء على هذا الحصن وما فيه من طعام. واستمر القتال حتى سقط القائد اليهودى الثانى بعد أن استطاع المسلمون العبور إلى داخل حصن « ناعم » بقيادة على بن أبى طالب. بعد أن استعصى الاستيلاء على هذا الحصن فترة ليست بالقصيرة.

قال على بن أبى طالب لعمر: « هؤلاء اليهود كلفونا وكلفوا أنفسهم الكثير من الجهد والعناء، وماذا لو التزموا بالإنصاف، ولم ينقضوا العهود، ونعموا بالحياة وحرية العقيدة؟ لو فعلوا ذلك لتجنبوا وإيانا شقاء طويلا .»

قال عمر بن الخطاب وهو يتنهد: « كنا نظن أنهم سيكونون أقرب إلينا من كبار رجالات مكة لأنهم أهل كتاب، لكنى تيقنت من غدرهم وجحودهم منذ البداية، لم يتركوا فرصة لنقض العهود إلا انتهزوها، ولم يجدوا أعداء لنا إلا وحرضوهم علينا، وانضموا إليهم فى بعض الأحيان. وثالثة الأثافى اعتزامهم الهجوم على المدينة والاستعانة بالفرس والرومان وغطفان.. أكان يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك، ونعرض دعوتنا للخطر؟ لقد جاء رجال من غطفان فعلا، لكنهم جبنوا عن الالتحام فى المعركة بعد أن رأوا

تفوقنا وحصارنا العنيد لخيبر .. الحق أن ثقتى باليهود ضعيفة منذ البداية ، ولهذا كنت أرفض سياسة المهادنة معهم ، لأن معناها المزيد من المؤامرات والتخريب ضدنا .»

قال على : « لم يكن هناك مفر من حمل السلاح .»

– « وهذه هى آخر جولة بالنسبة لهم .. ولست أدرى ماذا يفعل بهم الرسول إذا تم النصر لنا .»

– « كل ما يفعله الرسول خير وحق يا عمر .»

– « إن العفو عن أمثال هؤلاء يا على يكلفنا الكثير من الدماء والقلق ..»

– « تلك إرادة الله .»

– « الحقيقة يا على أنهم قاومونا بعنف بالغ .. إنهم مازالوا يضربون فى حنق وشراسة .»

– « اليهود ذوو أطماع وحقد ، والتعاليم الزائفة قد أتلفت عقولهم ومشاعرهم يا عمر . وإصلاحهم أمر ميئوس منه ، وإن قوما هذا شأنهم ،سيجلبون على أنفسهم التعاسة فى أى أرض يحلون بها .»

وفى حصن « الوطيح » عضت زينب بنت الحارث على شفتها السفلى فى غيظ حتى دميت .

– « واكرباه .. رجالنا يناضلون ويسقطون .. لكن الأعداء يتقدمون ، لقد استولوا على عدد كبير من الحصون .. أية كارثة تنتظرنا؟ ما معنى ذلك؟ أينتهى كل شىء؟ أين الله؟ هل تركنا وانصرف إلى محمد؟ »

وكم كانت دهشتها عندما سمعت صفية بنت «حيى» تقول : « أجل ، الحق ليس فى جانبنا .»

استدارت إليها زينب بعيون تطلق نظرات شرسة وقالت : « إن الهزيمة تكاد تقضي على إيمانك ومعتقداتك ..»

- « لا .. كان ذلك منذ زمن بعيد ..»

صرخت زينب : « هل محمد على حق؟ »

- « محمد ليس على باطل يا زينب .»

- « ونحن؟ »

- « أنت تعرفين ..»

- « هذا هو المروق بعينه .. لو سمعك زوجك لفصل رأسك عن جسدك .»

- « لن يكون لديه وقت لذلك ..»

- « يا للمصيبة !! هل نسيت أباك؟ »

- « هذا أمر آخر .»

وكم كانت دهشة النسوة حينما وجدن « كنانة بن الربيع » زوج صفية ، يأتي مهرولا تلطخ الدماء وجهه ويديه ويهتف : « هيا يا صفية .. لقد سقطت جميع الحصون .. لم يعد هناك سوى جيوب صغيرة للمقاومة .»

- « ماذا تعني يا كنانة؟ »

- « لسوف نهرب ..»

وانطلقت قهقهة عالية .

وتلفت الجميع إلى آخر الساحة .. كانت زينب تستمع لما يحدث وقالت زينب بصوت مرتفع : « إن صاحب الكنز المخبوء لا يمكن أن يضحي بحياته .. مات الرجال .. ماتوا أبطالاً .. أما أنت يا كنانة بن الربيع فلن تموت .. إن شعورك قد مات منذ زمن بعيد .. وامرأتك هي الأخرى تزعم أن محمدا على حق ..»

طأطأ كنانة رأسه لحظات ، ثم أبدى عدم الاكتراث بما تقوله زينب ومال نحو صفية قائلا : « لم لا تردين؟ لم يعد هناك أمل .. إن من ينج بنفسه هو الرابح فعلا .. العودة إلى الحرب حماقة .. لقد انتهى كل شيء .. البقاء هنا معناه الموت أو العبودية .. أتدركين الحقيقة؟ »

وصاحت زينب : « الرجال الأبطال لا يفكرون إلا فى الموت شرفاء .. أما الحثالة فلا يسيطر على أذهانهم إلا الحياة والكنوز .»

فلم يعرها كنانة التفاتا ، وصرخ بصفية : « لم لا تتكلمين؟ لم يعد هناك وقت للتفكير ..»

قالت صفية فى هدوء غريب : « لن أرحل ..»

صفقت زينب بيديها قائلا : « امرأتك أشرف منك يا كنانة ..»

استدار إليها كنانة فى حقد : « اصمتى يا فاجرة .»

رمته زينب بنظرات شزراء وقالت : « لو كان سلام بن مشكم حيا لما جرؤت على التلفظ بهذه الكلمات .»

جذب كنانة صفية من كتفها وقال : « كيف تفكرين؟ لو فقدنا الفرصة الآن ، فلن تعود إلى الأبد .»

– « لن أرحل ..»

– « هل أصابك جنون؟ »

– « بل فى كامل وعيى .»

– « إنك تربطين نفسك بذل أبدى .»

– « بل بعز الدهر ..»

– « كيف؟ »

– « هذا شأنى؟ »

– « أتخالفين أمرى؟ »

– « مرة واحدة .. لقد التزمنا بآرائكم طول العمر .. فماذا كانت النتيجة؟ فقد اليهود كل شيء .»

وصاح صوت أسفل الحصن :

– « يا كنانة بن الربيع .. انتهت المعركة واستسلم الرجال .. المسلمون دخلوا المدينة .. لم يعد هناك أمل فى الهرب .. لا شيء سوى الاستسلام .. لقد سقطت خيبر .»..

تمتمت صفية : « الحمد لله .»

وارتمى كنانة على الأرض شاحبا .. ساهما لا ينطق بكلمة .

وأخذت زينب بنت الحارث تقهقه كمن أصيبت بلوثة مفاجئة :

– « انتظر يا كنانة ستهبطون السلم أذلاء ، وسيوف محمد تهوى على رقابكم ، كما حدث يوم بنى قريظة ، وكنزك الدفين سيظل مخبوءا إلى الأبد .. أنا أعرفك ستقدم عنقك للسياف ولا تفرط فى ذهبك .»

ثم هبت زينب واقفة ، أطلت من إحدى النوافذ وصاحت : « إلى بفهد .. أريده على عجل .»

أتى فهد غارقا فى الرعب والعرق والحيرة : « مولاتى .»

– « فهد أنت حر منذ الآن .»

– « آه .. لقد فات الأوان .. ليس هنا أحد يملك شيئا اسمه الحرية ، كلنا أصبحنا أسارى فى يد المسلمين .»

صرخت بحدة : « أنت عبدى ، وقد جدت عليك بالعتق ، أنت حر .»

– « الشكر لمولاتى .»

– « لم أعد مولاتك أيها الغبى »

ثم قالت : « اذهب وعد فى المساء .. ليس هذا أمرا ، ولكنه رجاء »

– « سآتى إن بقيت حيا حتى المساء .»

وساد الجدل واللغط ، نفس المأساة القديمة ، نسوة يولولن ، وأطفال يصرخون ، ورجال يرتمون مهدودى القوى ، وكلمات ندم واعتراف بالخطأ والخيانة ، واستسلام كامل للمصير ، رجال يذهبون إلى محمد يتفاوضون ويذرفون الدمع ويرددون عبارات الندم والاسترحام ، هل من الضرورى أن يتعرضوا دائما لمأساة؟ هل من الضرورى أن يخوضوا فى طريق الشوك والغدر والمكيدة؟

ودخل عليهم الحجاج بن علاط تاجر اليهود ونادى بأعلى صوته : « يا معشر اليهود : لقد عقدنا مع محمد اتفاقا على أن يحقن دماءنا ، ويحفظ علينا حياتنا .. وأن نبقى على أرضنا على أن يكون له نصف التمر فى كل عام .»

وساد فرح غامر ، وأشرقت بعض الوجوه بابتسامات عريضة .

هتفت زينب : « يا للكارثة ! أتبتسمون للذل والهزيمة؟ »

قال لها الحجاج فى ضيق : « هل هناك ما يمكن عمله أحسن من ذلك؟ »

قالت : « أجل ..»

– « ماذا؟ »

– « الموت يا حجاج .»

قال فى سخرية : « هذه قضية يحكم فيها كل فرد حكما ذاتيا ، من أراد أن يموت فليحمل سيفه ولينزل إلى الميدان .»

– « ولم لا تفعل ذلك؟ »

– « ظللت أناضل حتى آخر رمق، رغم إيمانى بعدم جدوى المعركة منذ البداية، أنتم تعرفون، وأنا الآن أعلنت إسلامى .»

ران على الجميع صمت عميق قالت زينب وهى تحدقه فى جنون: « الآن فهمت .. لقد لاحت منيتك قبل أن تأتى إلى هنا. اذهب يا حجاج بن علاط، رافقتك اللعنة حيا وميتا .»

دار الحجاج بنظراته عبر الساحة الفسيحة قال: « كنانة بن الربيع »

– « ماذا؟ »

– « محمد يريدك .»

– « أنا؟ »

– « أجل .»

– « إنه الموت يا حجاج، أعرف إننى أحمل أوزارا من بنى النضير وبنى قريظة وخيبر، لكن الاتفاق لم يستثن أحدا .»

قال الحجاج: « إما أن تسلم الكنز أو الموت، أنسيت أنك كنت تهدد المسلمين بهذا الكنز، وإنك استغللته فى التحريض وإعداد السلاح وحشد الجند؟ أنت لم تخف ذلك، بل كنت تعلنه صراحة أمام المسلمين وأنت راحل عن أرض بنى النضير .»

قال كنانة فى مسكنة: « أقسم لم يعد لى كنز .»

– « هذا أمر بينك وبين محمد .»

وخرج كنانة بن الربيع بين همهمات زينب وسخريتها، كان يمضى مطأطىء الرأس مرتاع الفؤاد، وعلى الرغم من اضطراب صفية، وإشفاقها عليه، إلا أنها لم تستطع أن تبعد الخاطر الذى ورد على ذهنها، .. آه .. تلك الرؤيا الغريبة، ذلك القمر الوافد من

يثرب، القمر الذى يشق الظلام، ويميل نحوها حتى يستقر فى حجرها، وتمتمت فى شرود دون أن تدرى.

- « جاء القمر.»

قالت زينب فى سخرية: « أى قمر يا أختاه؟»

- « ذلك الذى يشق الظلام.»

- « هاها.. أنت الأخرى يا صفية ستصابين بلوثة جنون. إنها بداية الحزن على زوجك التعس.. لماذا لا تسرعى معه بالهرب؟ ستقضين باقى حياتك بلا قمر، ستبقين فى ظلام دامس.»

- « لكنى أراه يا زينب.»

أمسكت زينب بكتفى صفية وأخذت تهزها فى عنف: « أفيقى. ليس زوجك هو آخر الضحايا ولا أولهم، مات سلام، ومات أبوك، ومات كعب بن الأشرف، وابن أبى الحقيق، وكعب بن أسد، ودفعنا ثمن حماقتنا غاليا. كلنا ثكالى.. أنا وأنت والنسوة كلهن.. ومع ذلك قد يعود إليك زوجك سالما.»

تمتمت صفية فى إصرار: « القمر.. القمر.»

ثم انفجرت باكية.

أنكر كنانة حيازته لأى كنز، وأبدى استعداده للموت إن ثبت كذبه، وشهد عدد من جنود المسلمين بأنهم رأوا كنانة معزولا فى مكان مهجور يحاول تسوية أرضه، فذهبوا وبحثوا هناك فوجدوا جزءا من الكنز.

- « يا كنانة لقد حكمت على نفسك بالموت.. أججت عدة حروب، وشاركت فى عديد من المؤامرات، وموّلت المعتدين بمالك، وما زلت مصرا على إخفاء ذهبك لتهدد السلام، وتفتح

الثغرات لفتن جديدة . لقد استعصى أمرك يا كنانة على كل علاج .
أنت محكوم عليك بالموت .»

وقتل كنانة بن الربيع جزاء بغيه وعدوانه وإصراره على العناد
وبكت صفية بكاء مرا .



١٤

– «ويحى . ويحى . جلل العار حياتى ،
والذل يهوم على رأسى ، وفى عينى ،
وأنا بالأمس زينب بنت الحارث ، زوجة سلام بن مشكم . لكنى الآن إحدى السبايا .. حلمت بأن تركع عائشة تحت قدمى ، ويأتى السبايا من نساء الرسول يدلكن أقدامى بالطيب ويمشطن شعرى ، ويحركن المراوح أمام وجهى ، ويتلقين من ورائى فتات الموائد .. كيف انعكست الآية؟ زينب بنت الحارث ستذهب إلى بيت محمد لتخدم نساءه ، تمرغ شرفها العريق فى الذل والوحل!! وا مصيبتاه!! والخسيس بن الخسيسة « فهد » ما إن وهبته الحرية ، ومنحته قلبى وجسدى حتى تمرد واندفع فى نذالة ليعلن إسلامه ، وينخرط فى سلك المسلمين .. وا كرباه!! تشبثت بأذيال القذر .. ذرفت الدموع .. قلت له أعطيتك الحرية لتكون لى وحدى لتخفف من أسى الزمان وغدره .. فلنهرب .. ولنعش بعيدا عن العيون ، سأجعل من خدى لك وطاء .. وأنت العبد الحقير .. لكنه زمجر قائلا . « لن أبيع آخرتى بدنياى ، سوف أركض إلى الله » فلتركض يا ابن اللئيمة حتى تكسر رجلك ، ويدمى الشوك قدميك .. اليأس يطوق عنقى ، ويغل فكرى ، ويحرقنى بسياط الندم .. ما قيمة الحياة بعد ذلك؟ .

مات الرجال .. استراحوا .. لا عناء ولا ندم ولا شقاء .. ما أروع الموت علاجًا !! لكن .. أأموت بلا ثمن؟ والقسم؟ ثأرك يا سلام بن مشكم ، رب امرأة ضعيفة مثلى تحقق ما عجز عنه الجبابرة .. أحيانا تكون الخديعة أقوى من بطولة الأبطال ..

أحداث صغيرة قد تغير مجرى التاريخ والحياة .. أنا آخر وأضعف سهم فى كنانة خيبر .. يا لثارات خيبر ..»

وتلفتت زينب حولها ، النساء سبايا خاشعات ، وفى العيون دموع ، والرجال قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وينتظرون .

وصاحت زينب بأعلى صوتها .

- « يا محمد .. آمنت بك نبيا .. وبالله ربا وبالإسلام دينا ..»

كيف حدث ذلك؟ نساء خيبر ينظرن فى دهشة ، والرجال ترتسم الحيرة فى وجوههم ، والمسلمون يطربون لكل من يفتح الله قلبه لنور الإيمان ، وليس غريبا أن تهتدى امرأة إلى الطريق القويم ، ولو كانت زوجة سلام بن مشكم .. بل إن المتطرفين فى عدائهم ، قد يتطرفون فى صداقتهم إذا مالوا إلى جانب الحق ..

ألم يذهب عمر بن الخطاب ذات يوم لقتل محمد فإذا به ينشرح صدره للحق ، ويؤمن بدعوة الله؟

وهمست فى أذنها امرأة يهودية عنيدة : « وزوجك وأهلك الذين قتلهم المسلمون ..»

قالت فى ثقة : « لهم منى الوفاء والدموع ، وليس لهم الحق فى إخضاعى لضلالهم وفكرهم ..»

- « لشد ما تغيرت يا زينب !! »
- « الأحداث الكبرى تهدم وتبنى .»
- « لا تفلسفى الضعف والهوان ..»
- « أنت متسرعة .. قصيرة النظر ..»
- « لكن أؤمن بالوفاء ..»
- « وأنا أيضا .»
- « هذا زيف ..»

- « لكل طريقه يا أختاه ..»

وأخذت زينب تروح وتجيء فى حماس، كانت تتصرف فى قوة وتحد، وتعلن أمام بنى قومها أن الإسلام هو طريق الحق، وأن خطأ السابقين لا يلزمها بالزيغ والانحراف، كل إنسان له حق التفكير الحر والاختيار، وقد اختارت، ألم يعف محمد عن مجرمى الحرب؟ ألم يشفق بهم، ويجنبهم شقاء الطرد والتيه فى أعماق الصحراء حيث الفقر والجدب والجوع والظمأ؟

- « الحق أقول يابنى خيبر، إن لنا رصيدا من الخطايا والمخازى لا ينسى .. وزوجى سلام أول الخاطئين .. إن دمه لم يجف بعد، لكن الحقيقة تفرض نفسها، يجب أن نحمى ما بقى من تراث وأرواح .. ألم يرد إليكم محمد صحائف التوراة التى استولى عليها؟ لو قطع رقابنا لما لامه أحد .. ومحمد يدعو إلى وحدانية الله، والإيمان بجميع الرسل والأنبياء، والكتب المنزلة .. لا يعرف عصبية ولا حقدا. ما وجدت فى قرآنه طيشا ولا زيفا ولا اختراعا ..»

وتهامست النسوة فى خيبر وتغامزن، وهن يرون زينب تعد وليمة لمحمد، سبحان مغير الأحوال! تلك التى كانت تعقد المؤامرات فى بيتها، وتحرض على القتال، وتبيع نفسها للشيطان، أصبحت من المؤمنات بمحمد!

وكان الرسول حريصا على التخفيف من أثر النكبة على اليهود يريد الإحسان إليهم، ونزع ما فى صدورهم من غل، التزاما بمبدأ الرحمة، وفتح طريق الهداية أمامهم، وعندما أولمت له زينب لم يمانع، فأحضرت شاة حسن طهيها، وتحلق حولها الرسول، وبعض صحابته. قال أحد الصحاب، وهو « بشر بن البراء »، فى

مرح : « إننى لا أستطيع كبح جماح نفسى ، الجوع شديد ، والجسد مرهق ، والمعدة خاوية ، ما كل مرة نجد وليمة دسمة كهذه .. وأنا لا أطيق الصبر .»

أمسك بشر ذراع الشاه بيده، وانقض عليها بأسنانه، فاستطعمها وازدردها فى لمح البصر ، وهو يتمتم : « يا له من طعام لذيذ !! »

أما الرسول فقد سمى باسم الله ، وأمسك بالذراع الثانية للشاه ، ولاك منها مضغة ، فبدا الاشمئزاز والضيق على وجهه ، وسرعان ما لفظ المضغة، وتلفت نحو أصحابه قائلا : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم .»

فكف الجميع أيديهم عن الطعام وهرول أحدهم لإحضار زينب ، وقدمت زينب وهى ترتجف، وقد شحب وجهها . واضطربت خطواتها وزاغت نظراتها . قال قائل : « لقد دسست السم فى الطعام يا زينب؟ »

وقال آخر : « تريدين قتل رسول الله؟ »

قالت والدموع تغرق خديها : « حاشا وكلا ..»

وفجأة ، نهض « بشر بن البراء » من مكانه ، وقد تندى وجهه الشاحب بالعرق ، وأخذ يتقيأ كل ما فى جوفه .

قال صحابى : « يا بنت الجريمة ، انظرى بشر .»

طأطأت رأسها ، ولم يكن هناك جدوى من الإنكار ، ومادام أمرها قد انكشف ، فلتفسر الأمور بطريقتها الماكرة ، فاتجهت صوب الرسول وقالت له : « لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبره الله .»

وصاح صائح : « مات بشر بن البراء يا رسول الله .»

تجمع الصحابة ومعهم رسول الله- حول بشر ، وأخذوا ينضحون جبينه بالماء ، ويدعون الله من أعماقهم أن يكتب له النجاة .

وتمتم أحد الرجال : « مات بشر يا رسول الله .»

تدحرجت دمعة من عين الرسول ونظر إلى الجسد المسجى فى ألم وتمتم ببضع دعوات ، وجاء صوت عمر بن الخطاب يقول :

- « ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ . صدق الله العظيم . إن العدل يقتضى أن تقتل زينب جزاء صنيعها .»

واضطرب اليهود لهول الحادث ، وبدأ السخط فى أعينهم وفى همساتهم ، وأخذت التعليقات ، تنطلق هنا وهناك « لو مات محمد لقتلنا عن آخرنا . دائما نقابل الإحسان بالإساءة ، فكيف يثق بنا المسلمون؟ » يا للجحيم . كانت زينب بقية الخطيئة فى وكر الخيانة . ماذا جنينا غير العار والهوان؟

وصاح الحجاج بن علاط التاجر اليهودى : « يا معشر اليهود . أثبتوا ولو مرة واحدة فى حياتكم إنكم أهل للعفو والإحسان ، من أراد أن يسلم فيسلم ، ومن أراد أن يبقى على دينه ، فليبق معززا مكرما . أما حماقاتكم فلن تجر عليكم سوى الفناء والوبال »

وسيقت زينب إلى الموت .

وكم كانت دهشتها . حينما سمعت صوتا يهتف من خلفها : « إلى الجحيم يا داعرة .»

التفتت إلى صاحب الصوت ، والذهول يخيم على نظراتها وملامح وجهها وقالت : « أنت يا فهد؟ إنه أبشع وداع ..»

- « ليس فى قلبك الأسود ثغرة تطلين منها على النور .»

- « لشد ما أنا نادمة !! »

– « لم يعد يصدقك أحد .»
– « والذكريات يا فهد ..»
– « ملعونة أيامك السوداء .»
– « كانت جميلة .»
– « تبشين للعهر وأنت على أبواب الجحيم .»
– « فقدت كل أمل . فليصرخ الشيطان فى أعماقى .»
– « كنت دائما تبحثين عن الفناء .»
– « بل الحياة .»
– « كذبت .»
– « المجد والماضى وصحائف الخلود . والثأر .»
– « تحاولين أن تجعلى نفسك شهيدة .»

وضعت أصابعها فى أذنيها ، ومضت مسرعة وهى تقول : « لا أريد أن أسمع شيئا . ما أروع الاختباء والنسيان فى أحضان الموت اللعين .»

وبعد فترة قصيرة هتف الحجاج بن علاط بأعلى صوته : « هذا جزاء الخيانة .»

وتمتم أحد اليهود الطاعنين فى السن : « قالها يهودى . وهى حق .»



١٥

موكب السبايا يسير .. إنه موكب خاشع حزين وعلى رأس الموكب صفية بنت «حيى» بن أخطب ، أبوها عدو لدود للإسلام والمسلمين ، ومات بسيف القصاص يوم « بنى قريظة » ومحمد يذكر أعداءه ، ويذكر أن مؤامرته كادت تفتك بالمسلمين يوم « الأحزاب » ، إن صفية أيضا تذكر ذلك جيدا وهى تسير فى الموكب الحزين ، لو حقد عليها المسلمون جميعا لكانوا على حق ، إنه لشىء رهيب أن تصبح صفية سبية من السبايا .. يالتصرفات الأقدار ، امرأة تنوسلت من ذرية « هارون » النبى .. سليلة الأنبياء .. تصبح ضمن السبايا؟ وهى ذات فضل وجمال ، يحبها أهل خيبر حبا ملك عليهم شغاف قلوبهم ، بل إن مصائرهم التعسة قد تضاءلت إلى جانب مصيرها .

وتمتمت إحدى السبايا : « ما كان لصفية أن تنزل هذا المنزل الذليل »

وردت جارتها : « قضاء وقدر .. وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل .»

– « لماذا لا يتقدم أحد اليهود الذين أسلموا إلى محمد بطلب الصفح عنها؟ »

– « هذا أمر عسير .. فهى بنت « «حيى» » وزوجة « كنانة » ، ثم إن الثقة بها تكون ضعيفة .. وهل يوثق فيمن قتل المسلمون أباها وزوجها؟ »

ونظر المسلمون وعلى رأسهم النبى إلى موكب السبايا ، قال عمر : « من هذه التى تسير فى المقدمة؟ »

قال صحابى : « تلك هى صفية بنت «حيى» بن أخطب »

وتهامس المسلمون فيما بينهم ، إنها حسنة السمعة ، أصيلة المنبت رغم ضراوة أبيها ، وحقد زوجها ، طيبة المعشر ، جميلة السمة ، وعيون اليهود تحيطها بالرعاية والحب والتقدير ، لكأنما هم مشفقون على مصيرها .

ومال أحد المسلمين على أذن الرسول قائلا : « يا رسول الله ، إن صفية لا تصلح إلا لك .»

وفكر الرسول ، أيمكن أن يصفو قلب صفية ، وينسى الأحقاد القديمة ، والدماء التى أريقت ، أم أنها ستفكر فى الثأر لأبيها وزوجها؟ ثم ماذا يكون أثر التصرف على اليهود أنفسهم فى خيبر؟ هل سيشعرون أن هذا التصرف قد داوى جراحهم ، وخفف من آلامهم ومحا الكثير مما ترسب فى أذهانهم؟

واقترب منها الرسول وقال : « لم يزل أبوك من أشد الناس عداوة لى حتى قتله الله ..»

رفعت عينين صافيتين إلى الرسول وقالت : « يا رسول الله .. إن الله يقول فى كتابه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .»

وابتسم الرسول ، لكأنما وقع هذا الكلام من نفسه موقعا حسنا ، إن صفية تحاول أن تعلن عن تبرئتها من وزر أبيها ، بل واعترافها بإثمه ، وتبدى أمام الرسول علمها بالقانون الإلهى الذى نزل على يديه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .

وقال الرسول فى قوة يقين ورجاحة عقل ، وفساحة صدر : « اختارى .. فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى ، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك .»

قالت صفية وقد أشرقت ملامحها للحب والإيمان : « يا رسول الله ، لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك ، وما لى فى اليهودية من أرب؟ وما لى فيها ولد ولا أخ ، وخيرتنى بين الكفر والإسلام . والله ورسوله أحب إلىّ من العتق والرجوع إلى قومى .»

وسرعان ما أعتقها الرسول وتزوجها .

وعلت البسمة أفواه الرجال والنساء فى خيبر ، وهتف المسلمون مكبرين ، ونزل النبأ بردا وسلاما على قلوب المحاربين الذين أنهكتهم الجراح ، وأمضهم الصراع الطويل ونامت حمية الثأر الأعمى .

وسار موكب العروس من خيبر إلى « دومة الجندل » قرب المدينة– حيث سيتم اللقاء .. بين محمد وصفية .. والناقة تسير وصفية بالهودج .. تحلم بلقاء النبى العظيم .. أهى فى حلم أم فى يقظة ، إنها لا تكاد تصدق ما يجرى ، الأحداث سريعة متلاحقة مات « كنانة بن الربيع » ذلك الذى لم تشعر بالحب نحوه فى يوم من الأيام ، والتى كانت تستمع إلى آرائه الحاقدة الغريبة بمزيد من الضيق والحنق ، ويزداد بها الضيق كلما تكلم عن الذهب .. لقد وعدها ذات يوم بأن يأتيها برأس محمد هدية .. وهى اليوم تتلقى محمد هدية من السماء .. والبسمة على شفتيه ، ونور الإيمان يتلألأ على جبينه ، وأريج النبوة يفوح من أردانه ، ومات كنانة ملعونا– لقد بكت عليه لا بدافع الحب ، لكنه الواجب ، أو لعله العطف على رجل يموت .. أى رجل .. لو رأت صفية غريبا مسجى على قارعة الطريق لانهمرت الدموع من عينيها ، مات كنانة .. ومات معه الحقد والحماقة والغدر ، والظل الثقيل .. آه ..، بالأمس البعيد مات

أبوها .. لقد سعى إلى حتفه بنفسه .. اختاره وحتى فى لحظات الفراق الأبدى لم يتنازل عن رأى ارتآه .. فليتحمل نتيجة عمله .

وبعد وقت قصير ستزف إلى أعظم إنسان فى الوجود .. تلك هى الحقيقة .. قال لها : « اختارى » .. يا لها من كلمة رائعة ! وكان فى إمكان محمد أن يأمرنى فأطيع ، فأنا غنيمة من الغنائم ، وله الحق أن يفعل بى ما يشاء .. لكنه أبى أن يسوقنى سوقا إلى حريمه .. إنه لا يقتنص الحب ، لا يجعل منه مهمة تؤدى ، وواجبا مفروضا على المنهزمين قال لى اختارى يا صفية ، وخرجت من بين شفتيه أعذب ما تكون وأقوى ما تكون ، وأنبل ما تكون ، وأنا اخترتك يا قمرى المنير ، عشت ليالى وأياما طويلة أحلم بموكبك الباهر ، وأنت تشق الظلمات وتهتك أستار الحجب ، وتفد إلى خيبر .. كانت رؤياى باليقين أشبه . أكانت أحلام يقظة فتجسدت فى المنام ، ثم تحولت إلى حقيقة؟ يا قلبى الطموح ، لم تستسلم لليأس فى يوم من الأيام ، كنت كل مساء أجلس فى الظلام الدامس ، أناجى النجوم وأهرب ممن حولى ، وأبحث عن نورك .. كل ما حولى كان يوحى بالشك والمقت والحيرة .. وكلما اشتد حقدهم عليك .. وثارت ثائرتهم ، ازددت بك إيمانا ، وأيقنت أنك صادق أمين ، ودق قلبى لأفراح النبوة حينما سمعت بمقدمك .. كنت أجلس فى الحصن المنيع ، منطوية على نفسى ، مغمضة العينين ، أتخيلك قادما فى محياك شرف الدنيا ومجد الآخرة ، وصدق الحقيقة . وأنا ممن يبحثون عن الحقيقة ، وازداد بحثى عنها عندما مات أبى ، وتخفيت وراء

ملابس الأحزان والحداد كى أنفرد بنفسى، وأبحث عنها .. أنت ينبوع الحقيقة يا محمد.

آه .. لكم تقلبت فى فراش النعم والأبهة، ودرجت بين آباء ملوك .. حولى الخدم والحشم، وتحت أقدامى الذهب .. آمر فأطاع، ولم أستشعر السعادة والرضى إلا عندما رأيتك يا نور القلوب وربيعها .. آه .. أحببتك وأنت وحدك فى مكة تدعو إلى الله، وتتحمل العناء والعذاب، وترفض المساومات، وأحببتك وأنت تهاجر واثقا بنصر الله. وأحببتك وأنت تخوض المعارك القاسية، يا أشرف محارب، وأنت تقاوم الجموع، وعلى رأسهم أبى، وتحطم كبرياء المغرورين والموتورين وتخرج من كل ملحمة، قوى البأس، مشرق الوجه، تنفض عن جبينك الطاهر التراب والدم الغالى .. تكبر للصلاة .. أنت لم تقتل بنى قريظة .. هم قتلوا أنفسهم .. قتلهم أبى، أنت لم تقتل اليهود، بل قضيت على رذائل الإنسانية، ودمرت الحقد والدس والمكيدة، فالثعابين لا تترك البشر ينعمون إذا ما انطلقت من جحورها، يا واهب الأفراح لقلبى التعس، ومشعل فكرى بنور الحقيقة، يا نبع الحب والنظام والأمل، يا فجر حياتنا الجديدة.

وأفاقت صفية من أحلامها على صوت الرجل الذى يأخذ بعنان الناقة وهو يقول: « هنا دومة الجندل.»

وتمتمت صفية وقد دق قلبها. وتوردت وجنتاها: « وأين القمر؟ »

ومضت ليلة من العمر لا تنسى .. وهى من روعة تحقيق الحلم،

كأنها فى حلم .. وافتر ثغر السماء عن شمس مضيئة دافئة، ونظر الرسول إلى الكدمة الزرقاء أسفل عينيها وقال : « ما هذا؟ »

– « إنه حادث قديم يا رسول الله .. أثر باق يذكرنى بحلم رأيته ذات ليلة .. رأيت فى المنام أن قمرا أقبل من يثرب ودخل إلى حجرى، ولما استيقظت من نومى تولتنى دهشة، ولم أجد إلا أن أصارح بها زوجى كنانة بن الربيع الذى ما أن قصصت عليه الرؤيا حتى اربد وجهه وعبست ملامحه، وضرب وجهى وهو يقول : كأنك تحبين أن تكونى تحت هذا الملك الذى يأتى من المدينة .. ولقد صدقت الرؤيا يا رسول الله، وإنى لأحمل منها هذا الأثر الذى رأيت .»

وتحرك ركب المنتصرين إلى المدينة .

وحظى أمر صفية باهتمام بالغ، بين نسوة المهاجرين والأنصار ونسوة الرسول، وتقاطرن صوب بيت الرسول، محجبات مسدلات النقاب على وجوههن .. ومن غير صفية ذات الجمال والفضل والتاريخ العريض يمكن أن تحظى بهذا الاهتمام البالغ؟ أبوها شغل العرب بحيله ودهائه، ومصرعه كان حكاية تروى فى المجالس، وزوجها صاحب الكنز والتهديدات المعروفة وقومها فى خيبر كانوا يشكلون خطرا دائما ضد الإسلام والمسلمين .. إن صفية رمز لقصة مثيرة، ونهاية لمأساة كبرى، ومال الرسول على عائشة، وقد اختفت وراء نقابها متوهمة أن الرسول لن يعرفها .

وقال : « كيف رأيتها يا عائشة ..»

لم تستطع عائشة– كامرأة– أن تخفى معالم غيرتها، أمام ما رأته من جمال جذاب، وشخصية قوية أخاذة وعراقة تبدو على

ملامحها وكلماتها وتحركاتها ، وأمام انشغال الناس بأمرها ، وهزت عائشة كتفيها وقالت :

– « رأيت يهودية ..»

قال الرسول فى رفق :

– « لا تقولى هذا يا عائشة ، فإنها أسلمت فحسن إسلامها . وهل بعد الإسلام شىء يستطيع أن يمحو أدران الماضى ، ويلغى فوارق الجنس واللون والحسب؟ »

١٦

ساور « الحجاج » بن علاط .. التاجر اليهودى بخيبر القلق والتوجس بعد انتصار المسلمين وإعلانه إسلامه ، وكيف لا ينتابه القلق ، وهو صاحب تجارات واسعة ، وله أموال كثيرة فى مكة ، ولو علم أهل مكة بإسلامه ، فلسوف يحقدون عليه ، ويمنعون عنه ماله انتقاما منه ، ولم يغب هذا الموضوع عن ذهن « الحجاج » منذ البداية ، فقد فكر فيه طويلا وعرض الأمر على الرسول ، واستأذن الرسول فى أن يلجأ لبعض الحيل التى قد تكلفه نوعا من الكذب حتى ينال حقه ، وأسرع « ابن علاط » إلى مكة ، فوجدها تنتظر على أحر من الجمر ، متلهفة لأنباء حرب محمد مع يهود خيبر . وحينما وقعت أعينهم عليه هرولوا نحوه ، وأخذت أسئلتهم تنصب على أذنيه كثيرة ومختلفة .

وابتسم الحجاج وقال : « أريد مالى أولا .. لسوف أزف إليكم بشرى ما حلمتم بها قط .. »

قال أحدهم : « لئن كانت بشرى كما تزعم فأنا أمين برد كل مالك . »

– « إذن فاسمعوا . افتحوا آذانكم جيدا .. إنها أخبار سوف تهزكم هزا شديدا . »

هدرت أصواتهم مختلطة متعطشة : « قل ولا تخف شيئا . »

تنهد ابن علاط وقال : « يا لها من حرب . مات فيها خلق كثير ، وسالت الدماء أنهارا . فقدنا عددا كبيرا من خيرة رجالنا .. ملحمة لا تنسى أبد الدهر .. »

وأخيرا صاحوا بصوت واحد : « ماذا؟ »

– « انهزم المسلمون وولوا الأدبار ،وأسلموا سيقانهم للريح ، وفتن أصحاب محمد ، وتبرءوا من دينهم .. لقد كشفت الهزيمة ما كانوا فيه من وهم وخداع .. أيها الرجال .. لم نعد من مطاردتهم إلا بعد أن أخذنا عددا كبيرا من الأسرى ، ومن بين هؤلاء الأسرى محمد .»

صاحوا وهم لا يكادون يصدقون : « محمد؟ »

– « أجل .. محمد بن عبد الله .. إنه سجين فى خيبر الآن . ويثرب لم تحرك ساكنا . لقد انطوت على جراحها وأخذت تبكى على قتلاها ، ولن تقوم لها قومة بعد الآن ، ولو فكرت فى غزونا ثانية فلسوف نقتل محمدا ، ومن معه من الأسرى، وهذا ما أخطرناهم به .»

تصايح الرجال وأخذوا يهتفون فرحا وشماتة . لكن بعضهم أطرق كسيف البال ، دامع القلب ، إن الحدث كبير لا يصدق ، وسرعان ما انتقل من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت ، وتوافد الرجال من كل صوب يشنفون آذانهم باستعادة القصة من الحجاج بن علاط . وصاح فيهم آخر الأمر : « لقد مللت تكرار السرد .. أريد مالى .»

وسرعان ما أحضروا له ماله ، بل أضافوا له بعض الهدايا للبشرى السعيدة ، ووقفت هند ترقص فى بيتها ، وكأنها فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، وقالت ووجهها ينطق بشرا : « الرهان يا أبا سفيان .»

ضرب أبو سفيان كفا بكف وقال : « هذا أمر عجيب ، إننى لا أكاد أصدق ، أنا معك فى أن رجال خيبر شديدوا المراس ،

أقوياء الشكيمة . لكن ليس من السهولة أن يسقط محمد هذه السقطة .»

قالت في غيظ : « أو عندك شك في ما قاله ابن علاط؟ إنه قادم من المعركة وعلى كاهله جراحه . دائما تحاول يا أبا سفيان أن تفسد على متعتي ، وأنا في أوج سروري وهنائي .. ما أعظمك يا يوم خيبر ! فشلت مكة ، وانتصرت خيبر . لسوف يعزى الفضل لليهود أبد الدهر . قلت لك انطلق لتشارك في اجتناء النصر العظيم قبل فوات الأوان ، لكنك تقاعست . خفت بأس محمد ، وقلت بيننا وبينه عهد . إنك لا تعرف متى تثب ومتى تقر .»

وصمتت برهة ثم عادت تقول : « الرهان يا أبا حنظلة .»

وهرول عكرمة بن أبي جهل إلى بيت خالد بن الوليد ، وقال : « جئتك بما لم يجئك به بشر قبلي .»

– « خيرا .»

– « هزم محمد في خيبر ، ووقع في يد اليهود أسيرا .»

شحب وجه خالد ، وهب واقفا وقال : « ماذا؟ »

– « مقالة قالها الحجاج بن علاط تاجر خيبر اليهودي . شارك في المعركة ، وروى لنا تفاصيلها .»

– « لقد سمعنا بموت سلام بن مشكم ، والحارث بن أبي زينب وغيرهم من رجالات اليهوم في أيام المعركة الأولى .»

– « أجل يا خالد . مات خلق كثير .. لكن النصر كان لخيبر .»

وران الصمت على خالد ، بينما استطرد عكرمة يروي التفاصيل نقلا عن ابن علاط ، وأخيرا قال خالد : « يبدو أن في الأمر خدعة .»

– « إنك تهول في الأمر . ولماذا الخدعة؟ »

– « ألا يجوز أن يكون محمد قد انتصر ، وأن ابن علاط أصبح من أتباعه . وأن محمدا قد أرسله لكى يخدعنا ، وننصرف إلى اللهو والأفراح وقصائد االشعر ، ثم نتلفت فنجد محمدا قد حاصر « مكة » فجأة وأخذها على حين غرة؟ »

وأخذ عكرمة يقهقه حتى كاد يستلقى على قفاه : « ليس محمد من السذاجة بحيث يتصور الآن أنه قادر على غزو مكة إن صح ظنك .»

ثم أخذ عكرمة يلوح بيده قائلا : « الرهان أولا .»

– « لابد أن أتأكد من ذلك بنفسى .»

– « لسوف يخرج من مكة جمع غفير ، وسيشدون الرحال إلى خيبر ليروا محمدًا السجين. إنها فرصة العمر. إننى لا أكاد تصوره حبيسا ، وحيدا ، وجموعنا تدور حوله والكلمات الجارحة ، والسخريات المرة تنهال عليه ، بل وما هو أكثر من ذلك ، آه ، انتهى محمد وانتهت أكبر خدعة عاشتها العرب فى تاريخها الطويل .»

وتمتم خالد : « وسيعود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير . وسترضخ الجزيرة لسلطان اليهود المنتصرين ، وسيفرضون علينا الذل والعار أبد الآبدين . ألم تفكر فى ذلك يا عكرمة؟ »

قال عكرمة ، والفرحة الغامرة تلمع فى عينيه : « لم أكن أفكر فى غير شىء واحد »

– « ما هو يا عكرمة؟ »

– « القضاء على محمد بأية وسيلة . أية وسيلة .»

– « أيها الأبله المسكين . لقد كنت أفضل أن ينتصر علينا محمد أو ننتصر عليه . أما أن يكون النصر لليهود ، فهذه كارثة لن تبدو آثارها إلا فى قابل الأيام . لسوف نلغ فى بحار من الدماء ،

وستزداد الفتن والاضطرابات وسيفرض اليهود على العرب الخراب والدمار والصرع الدموى الدائم ، حتى لا يخرج لهم من جديد رجل كمحمد »

وقهقه عكرمة من جديد وقال مازحا : « أتعتقد أن جبريل يستطيع الآن أن يخترق أسوار السجن ، ويغافل الحراس ، ويفتح الأبواب الموصدة ، كى يذهب لوحى جديد لمحمد ؟ »

لم يشاركه خالد الضحك والمزاح ، ولكنه قال : « ليس لقدرة الله حدود .»

– « خالد . أوتشك ؟ »

– « كل الشك .»

– « لكن محمد أسير .»

– « إن كان كذلك فلسوف يصحون ذات يوم ولن يجدوه .»

– « كيف ؟ »

– « إنه قادر على إقناع أعتى السجانين بمنطقه .»

– « لكنهم من وقحاء اليهود .»

– « إن الأمر كله يبدو غريبا غاية الغرابة .»

وبلغت الأنباء الخطيرة مسامع « العباس » عم الرسول فى مكة ، ولم يكن مسلما ، ومع ذلك فقد توترت أعصابه ، وارتعشت عضلات جسده ، واجتاحه غم شديد ، وتمتم : « لو كان لى قوة أزحف بها صوب خيبر لتحرير محمد ، وتأديب اليهود ، لما تقاعست لحظة آه » .

وزحف المساء فتستر العباس بالظلمة ، وانفلت إلى حيث يأوى « الحجاج بن علاط » وتلفت يمنة ويسرة قبل أن يدخل عليه ، وعندما لقيه ، قال وقلبه يخفق : « يا حجاج بن علاط ، أيها الرجل

الطيب . أخبرنى الخبر . لا تخفى شيئا ولو كان محزنا . أنت تعلم أن محمدا ابن أخى .»

ابتسم الحجاج بن علاط وقال : « أنت فى الذؤابة من الشرف . أتعدنى أن تخفى أمرى إن صدقتك الحديث؟ »

- « اقسم على ذلك ، ولو ضحيت بحياتى .»

قال الحجاج : « ابن أخيك بخير . وقد دانت له خيبر ، وانتهى سلطان اليهود إلى الأبد . وأنا تابعه على دينه ولقد لجأت لهذه الحيلة حتى أجمع مالى من رجال مكة ..»

وثب العباس إلى الحجاج، وأمطر رأسه ووجهه وكتفه بالقبلات .

وتمتم ابن علاط : « أتحبه لهذه الدرجة؟ »

ولما لم يجب قال : « ولماذا لا تؤمن بدعوته إذن؟ »

- « هذا أمر آخر يا ابن علاط .»

وأخذ الحجاج يضرب كفا بكف ويقول: « إن أمركم لجد عجيب . أنا لا أعرف هل مكة تحب محمدا أم تكرهه ، كنت أرى الدموع تمتزج بالابتسامات ،وأنا أروى مقالاتى، والفرحة متوشحة بالحزن هل تحبونه أم تكرهونه؟ أريد أن أعرف .»

وانصرف العباس سعيدا ، لا تكاد الدنيا أن تسع فرحته .

وفى الصباح لبس العباس أفخر ثيابه وذهب إلى البيت الحرام يطوف به ، وقال له أحد الرجال : « إنك تتجمل بالصبر ، وتلقى الكارثة فى ابن أخيك بالتجمل والهدوء ، وهذا شأن الرجال الشرفاء الأقوياء . إن المصاب فادح . لكن كان لابد أن تكون هذه هى نهايته .»

ابتسم العباس وقال : « إننى أطوف البيت شكرا لرب البيت .»

– « ولم الشكر يا عباس؟ »

– « دانت خيبر لابن أخى وأسلمت قيادها له، وعاد بالغنائم وتزوج صفية بنت «حيى» بن أخطب . لقد انتصر محمد . خدعكم بن علاط ليأخذ ماله، وهو الآن فى الطريق إلى يثرب . وابن علاط قد أسلم وحسن إسلامه .»

وسرى النبأ فى كل الأرجاء، واهتزت مكة من جديد، واحتد الجدل والنقاش، وتكومت هند على فراشها محتقنة العينين، ثائرة النفس، ومال عليها أبو سفيان وقال مداعبا : « الرهان » . فدفعته فى صدره دفعة قوية، كاد يسقط على أثرها، وذهب خالد بن الوليد إلى عكرمة، وهمس فى أذنه : « الرهان » .

وأخذ عكرمة يصر على اسنانه فى غيظ ويقول : « لقد خدعنا هذا اليهودى الماكر ليأخذ أمواله، لو كنت واثقا من اللحاق به لطاردته، ومزقته إربا، وجعلته طعاما لوحوش البرية .»

وتمتم خالد فى شرود : « آه . إننى أكاد أقرأ سطور المستقبل . إننى أراه يسير برجاله المؤمنين، وينشر دعوته، فتدين له القبائل، وتعلو رايته، وأراه وهو قادم ذات يوم إلى مكة، وكل واحد من أعدائه يتقدم نحوه يعلن قبول دعوته . والبعض يولى الأدبار فارا بحياته إلى عالم المجهول إننى أراه وهو ..»

قاطعه عكرمة قائلا : « ماذا؟ هل جننت يا خالد؟ أو الوهم قد بدأ يسيطر على ذهنك أنت الآخر .»

– « إن خيبر لم تكن بالصورة التى توهمناها، لو أعطيتمونى ، ألفين من الرجال لفتحت خيبر فى ليلتين .»

وقهقه خالد ثم قال:

– « أين الرهان؟ »

– « إننا كنا نمزح . مجرد أمنيات لم تتحقق .»
تنهد خالد وقال :
– « سنظل نمرح ونتوهم حتى نفقد كل شيء »
ثم استدار إلى عكرمة وقال في جد : « لماذا لا نصرف جهودنا منذ الآن في البحث عن الحق ، فإذا كان في جانب محمد اتبعناه ، وإن كان في جانب اليهود اتبعناهم وإن كان في جانبنا متنا دونه؟ »
هتف عكرمة في شيء من الضيق : « هذه قضية لا تشغلني الآن لقد عرفت الحق منذ زمن بعيد .»
– « وأين هو؟ »
أشار عكرمة وقال : « هنا . في قلبي .»
– « يا للكارثة . الحق ليس أمرا ذاتيا . إنه شيء يخص الجميع . إن مجاله الفكر وليس النزوات .»
– « إنك تعقد الأمور بطريقة غريبة .»
رماه خالد بنظرة ذات معنى وسكت .